صراع في عين الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1440 هـ - 2018 م
ردمك 978-9947-79-221-6 : (ISBN)
توزيع الدولي للكتاب: مصر، لبنان، العراق، الأردن، السودان

اسم العمل: صراع في عين الشمس
اسم المؤلف: بوجلال جميلة
تصميم الغلاف: لغويل سيف الدين
المدير العام / سميرة منصوري
اخراج: فريق دار المثقف

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر/ دار ببلومانيا مصر للنشر
صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 70 65 85 033 / 86 73 49 0675

المثقف للنشر والتوزيع

ببلومانيا للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

جميلة بوجلال

صراع في عين الشمس

رواية

المثقف

الإهـــداء

إلى الذي أهداني ضوءا أخضرا وسط ظلام دامس إلى روحي والدي

يقال أن الورق مطفأة للذّاكرة

لا أظن أن هذا يحدث معي، كي تنطفئ ذاكرتي، يجب أن أعود للأزل الغابر، وأوُلد من جديد من رحم القدر، ولا أظنني أنسى ، يبدو أنني سأتذكر ما حدث معي، مع أول صرخة أبعثها للوجود، كم هو صعب أن أشفى، والسقم أصاب أقْدس ما في الحنايا.... الرّوح.

فروحي أصبحت كعصفور، تطارده أمطار وحرائق، أمطار الحنين توخزني، وآلامها في العمق، وحرائق تسد أبواب الشفاء بابا فباب، كلما أغلقت فوهة أخرى انفتحت.

قدرنا أن نضيع في مفترق الطرق، توجهنا عصا الأيام بقبضةٍ قاسية، تكبلنا بالأغلال، عبثا أحاول النسيان لكن هيهات، هل تستطيع الكلمات دفنك في زاوية من زوايا الذاكرة.؟

ليته يحدث هذا.

أيُّ قدر هذا ؟ الذي جاء ليضعنا في سجن الانكِسارات، تُضاف لرصيد الخيبات التي نعيشها، الوطن عصفور جريح، الأيام تقفز بين لونين، أسود قاتم وأحمر قان، الأعوام عصيبة والنفوس مريضة، خلل في الأفكار، تتصارع فيها الأيام بين نرْجسي وسادي ومازوخي وغيرُوقراطي، وحسدوقراطي، يعطل مسار الحياة وناره تأكل الجوى والأجواء، أصبح الوطن على حافة الانهيار.

الوطن أبوة، لا نتنكر له مهما كان شكله، قدر لا نتعب في حبه، ونحن ندور في فراغه ونشرب شرابه كيفما كان مذاقه، ونمتلئ بالهموم اليومية من شسع النعل إلى سد الرمق المضني.

أيها الفوضويون، دعوا البراعم تتفتق والينابيع تسقي البذور.

دخلت علي صديقتي جميلة في المكتب اعتدلت في جلستها كانت كالملاك في ملامحها وعطفها وسماحتها.

السلام عليكم

سلام الله عليك

أخذنا نتبادل أطراف الحديث، كنا روحين تحلقان في الفضاء، نبتسم، نتصافح دون وعي منا، حين نحس تقاربا في الأفكار والمزاج، أحس بنشوة عارمة، لأنه صعب أن نجد من روحه تحتضن روحنا.

قالت: هل من جديد؟

قلت: لا جديد، وكنت أعي أي جديد تقصد

ومن البهو، أتانا صوت زميلي سليم، ينادي جمال هل علمت أن صالح توفي اليوم

هل قتله الآخرون؟

لا مات بسكتة قلبية

وأخيرا تركوا الفرصة لله قال بلهجة التهكم.

أستغفر الله.

قالت: صديقتي النكتة طالت حتى المقدسات تبًّا لهذا الزمن الرديء.

ثم لفت نظرها خاتما كان بأصبعي.

ما هذا الخاتم؟ وهي تمسك بيدي في لطف

قلت: تصوري ابنة أختي لا تتجاوز الثلاث سنوات، وجدته في لعبتها أهدتني إياه قالت لي:

هذا من خطيبك ناصر، ضحكت من سذاجتي، وضحكنا معا ربما من السذاجة، أو من سخرية الأيام منا، وما إن أنهيت الكلام حتى دخلت علي فتاة تقاطعني الكاهنة عندك تليفون، ذهبت للفتاة التي تستقبل المكالمات. هذا الرقم تركه أحدهم يُدعى ناصر، يرجو أن تتصلي به.

عدت لصديقتي وأنا أقفز، ليس من فرط الفرحة، بل من غرابة ما حدث، وأنا في غاية الدّهشة ويبدو أنها قرأت ملامحي

ماذا؟

هذا رقم لأحدهم يُدعى ناصر

سبحان الله

قلت في نفسي دون أفصح لصديقتي يبدو أن هذا هو قدري.

اليوم كان ممطرا، كنت مغمورة بالعنفوان والكبرياء، أمشي كالعادة مغتبطة، فحياتي رغم الانكسارات، كانت سمفونية رائعة بألحان متفاوتة، صخب في الأعماق وهدوء في الروح، وأنا أتهادى بعذوبة والنشوة تغمرني.

كنت أقفز كفراشة زهوًا، لا يحكمها قانون الجاذبية، من الحديقة إلى قمة الجبل ومن السفح إلى الوديان، أسافر عبر البحار لأقبل الشواطئ، أتوسد الأصيل وأنام على الثرى، كسلطان يحميه عدله من جور الأعداء، أو كقديس تحميه كراماته جور الإنس والجن.

ألو من معي ؟

ناصر

من ناصر؟

أنت الكاهنة ؟

نعم

قال: بلهفة المشتاق آه سبعة عشر سنة وأنا نحوّس عليك.

علمت ساعتها أني أعرف الرجل، لطالما سمعت عنه أنا أيضا، هناك دوما روحا نلحق بها وهي تتلاشى في الضّباب.

قلت في نفسي أحقا يوجد في هذا الزمن من يشتاق لإنسان بمجرد سماعه عنه؟ ثم رحت أستمع إليه.

كان كلامه عن الروح الأخت والشّوق الذي يُعانيه، وأنه يَتصور أني حُورية من حُوريات الجنّة أستطيع أن آخذه نحو المهاوي الجميلة السّاحرة وأنقذه من

هـذا الخـواء الجامـد المقيـت.

مهـلا. مـا أنـا إلّا فتـاة بسـيطة عاديـة، أنـا لا أقبـل بالعـادي العـادي أراه كل يـوم ولـو لم أسـمع أنـك اسـتثنائية وأحسسـت بـه، بروحـي لمـا سـمحت لـك أن تقتحمـي عوالمـي، ولا تقـولي أنـك تقليديـة أيضـا مثـل اللـواتي كأنّهـن مـن القـرون الوسـطى، فهمـتُ مـا يَعنيـه، تقصـد الحجـاب؟ نعـم أنـا متحجّبـة

أووووووووف

فُوجئـتُ حـين سـمعتُه يتأفّـفْ، فَهمـتُ أنّـه ليْـسَ مـن أنْصَـار الحجـاب، تجـاوزت الحـدث، ولم أُعقّـبْ غـيَّرتُ مجـرى الحديـث .

هل مازلتَ تكتب ؟

لا أحرقـتُ كل شيء، اسْـتغربتُ مـن هـذا التّـصرف صمـتٌ ولم أُعقّـب، يبـدو أنـه خـارج نطاقـهُ الطبيعـي، فحـين نُقبـل عـلى حـرْق مـا كتبنـاه، يعنـي أننـا أحرقنـا ذاكرتنـا أعمارنـا، لا نريـد أن يربطنـا بالحيـاة أي خيـط.

أيعقـل أنَّ إنسـانا طبيعـي يقتـل بنـات أفـكاره، الإبـداع كالأبنـاء، والكتابـة تهبنـا التـوازن النفـسي وتحمينـا الانـزلاق في مسـالك الجليـد، وتُـضيء أعماقنـا بضيـاء الرحمـة، وتُضفـي علينـا شـيئا مـن القداسـة.

انتهـى الحديـث، غـادرت وأنـا أتسـاءل في نفـسي كيـف هـو؟ شـكله، ملامحـه، وبعـد شـهور مـن الحـيْرة كان فيهـا حـين يكلمنـي ينعـت نفسـه أنـه ليـس جميـلا وأننـي لـو رأيتـه للـذت بالفـرار ولملئـت رعبـا، كنـت أقـول لـه إن الشـكل الخارجـي مـا هـو إلا الإطـار الـذي تسـكنه أرواحنـا، فالـروح هـي الأهـم حـين تصفـو يكـون كل شيء عـلى مـا يـرام.

وكما قيل:

ليس الجمال بمئزر وأن رديت بردة .... إن الجمال معادن ومناقب أورثنا مجدا

وفي يـوم كنـت أمـشي في رواق العمـل، نـاداني زميـل لي ناولنـي ظرفـا قـال: هـذا لـك، أمسـكت بـه غـادرت مسرعـة للمكتـب عجّلـتُ بفتحـه وجـدت صـورة وورقـة مكتـوب عليهـا باللغـة الفرنسـية.

En fin c’est moi

تأملـت الصـورة فُوجئـت أنهـا مـن أروع مـا يكـون سـمرة عسـلية، عيـون بهالـة مبهمـة، مليئـة بحـزن عميـق بـاد عـلى المُحيَـا، شـعر أسـود كقطـع الليـل مسترسـل، ملامـح تُوحـي بالكثـير مـن التّسـاؤلات، ملغّمـة بالألغـاز، اجتاحنـي الفضـول وأحسسـت بالتّحـدي كي أحـل شـفرة اللغـز لأني دومـا كُنـتُ أسـيرة الوهـم، أحلـم برجـل يـأتي مـن خلـف الضّبـاب بـزي خـرافي، وبعقـل راقٍ وروح مـلاك، ظننـت أنّي عـثرتُ عـلى الجوهـر الفـرد، رجـل لا يشـبه هـذا العـالم.

ورغـم أنـه كانـت تسـاورني شـكوك أنـه سَـيُخيب ظنـي، واظبـتُ عـلى مكالمتـه مـن بيـت صديقتـي سـمية، فتـاة كتومـة حييـة طيبـة متوسـطة الحـال، قسـتْ عليهـا الأيـام ولم تأخـذ مـن حظهـا في الحيـاة إلا المـرض لكنهـا مُتجلـدة بالصّـبر والإيمـان، فهـي التـي أسـتطيع أن أَأْتَمِنُهَـا عـلى سرّي، تسـكن بيتـا متواضعـا مـن الطـراز العتيـق هـي وأمهـا العجـوز، التـي كانـت لا تظهـر إلا نـادرا تسـلم عـلي في بـطء تسـأل عـن أحـوالي وتنـصرف، تدخـل عـلي سـمية الغرفـة بهدوئهـا المعهـود وصينيـة القهـوة بيدهـا، وهـي تعلـم أن قهوتهـا ضروريـة، لأني كنـت مدمنـة عليهـا ثـم تنـصرف وتغلـق بـاب الغرفـة وراءهـا.

أَتَّكئ على الأريكة، يرن الهاتف

ألو السلام عليكم

سـلام أهديـك ليـس كـما يُهديـك العـالم، يَنقبـضُ حاجبيـا مـن غـير إرادتي لأول مـرة

أسمع تحية بهذه الصّيغة، تبدأ لغة الأثير تنزلق بين أمواجه، نتسلق بعض مناحي الحياة، كان واسع الثقافة لدرجة تبهرني، تتعثّر الأسلاك برأسي حين نتطرّق للحديث عن الوطن، أو بعض النجاحات التي حازها بعض الشباب المبدعين تبدأ الرّوح السلبية تظهر عليه والتذمّر، حينها أحس أن الأيام أنهكته وأنني أكلم روحا متعبة ناكرة للذات الوطنية والتراث، أتذكر يوما كنا نتحدث عن أحد المبدعين قلت أنه مبدع بارع.

قال: عن أي مبدع تتكلمين! أنا لا أعتبره مبدعا كالعادة لم أعقب، صمت قليلا.

قلت في نفسي أيُّ رجل هذا؟ لكن كان لي أمل أن يتغير في يوم من الأيام ويصبح إنسانا إيجابيا وأكون قد فزت بالتحدي، مرت الأيام وأيقنت فيها أنني أُكلّم صخرا تصدع بفعل الزمن، ورغم هذا حين طلب مني أن نلتقي وافقت، قمت من فراشي والحنين يعتصرني والفضول يدفعني للتعرّف على هذه الروح المهلهلة التي تجذبني لسبْر أغْوارها ولأَخْذ القرار الذي يُناسبني وأحسم الأمر، اتصلت بصديقتي واتفقنا على أن يكون السّفر غدا صباحا.

وبينما كنت أنتظر الحافلة، فجأة وجدت عمار الشاعر واقفا أمامي، الإنسان الذي طالما تمنّى وصالي يبدو أنه أعجب بأفكاري، حين قرأ لي بعض الخواطر التي كنتُ أُرسلها له مع إحدى تلميذاته، يومها ردّ علي في رسالة مطوّلة، يقول في مطلعها أختي الفاضلة، عصفورتي الغالية، قرأت تحفتك الأدبية من شعر وقصة وخاطرة، لقد أبهرتْني حتى تَصوّرتُ نفسي وأنا أقرأها أنّني أقرأ لكاتب كبير، أَحْسَسْتُ بغبطة تهزّ كلّ كياني وبخوف شديد، لأني أعلم أنه قد ثبت في تاريخ الإنسانية أن أغلب المبدعين تخلوا عن أحلامهم العادية والحياة التي يحياها البشر العاديين وتَرهْبنُوا من أجل غاية واحدة وهي أن تتجسّد أفكارهم في واقع الناس حتى لو دفعوا أعمارهم قربانا من أجل هذا الهدف

السامي ولأني أعلم أن الإبداع مسؤولية وتضحية ولابد من المثابرة والصبر صرت في مخيلته المرأة التي يحلم بها، لكني كنت لا أُعيره أي اهتمام، لدرجة أنني يومها تصرفت بقسوة دون أن أشعر .

وضع ذراعه على الحائط كمن يَحتضنني تذمرْتُ من هذا التّصرف قال كلاما لم أسمع منه شيئا، فجأة وقفت الحافلة، قفزتُ دون وعي مني امتطيتها وتركتُ له غبار الرصيف يُكلمه، قالت صديقتي نادية كانت بجانبي ما هذه القسوة؟ وهل عمار يعامل بهذه الصيغة؟ إنّه رجل مبادئ، رصين، مخلص، الّلِي ما عندوش الزّهر معندوش، ردت عليها حورية ما تكسْريشْ راسكْ تعرفي كاهنة راسها يابسْ، يبدو أنّني أحب ترويض الأحصنة الجامحة، إيه نعرفك مهبولة وماتعرفيش صلاحك، اكتفيت بهزة بكتفي، تذكرت قول أمي:

« لَمْرَى)المرأة (كي تَكره دير غابة من الشيح وكي تحب ادير قومان من الريح.»

الحافلة تمزّق الطريق، تختزل المسافات، وأنا أفكر في كل الذي كان منه، ضعتُ بين الكلمات المبعثرة والملامح السحرية، أفقت من غفوتي، على صوت القابض قائلا أختي، يشير إلي أنْ أدفع المبلغ المستحق.

أدخلتُ يدي في الحقيبة أخرجتُ منها وَرِقْ ناولته إياه، أدرتُ رأسي ناحية النافذة أنا القادمة من قدر تتعلقُ على جنباته أزمنة متعبة، العازمة على انتزاع الحياة من فيه الأسد، وقطف الزهور من الأحراش والأدغال، هدوء على الأرض وصخب بداخلي، أتأرجح بين الترقب والحذر مما سيحدث عند لقائي البحر الصّاخب في كل الأحوال.

وأخيرا توقفت الحافلة، وصلنا كنا ثلاثة، وأنا ماسكة بالصورة أتأمل الجموع علني أجد فيهم من يشبهها، تائهة بينهم، وإذا بأخرى تشير بأصبعها منادية

هـا هـو.

كان جالسـا عـلى الطاولـة أمـام كفتيريـا، ماسـكا الجريـدة، انتفـض مـن مكانـه عـلى وقـع الصـوت، هـرع إلينـا صافـح الأولى والثانيـة، قـال وهـو يصافحنـي: الكاهنـة نعـم، تعجبـت كيـف عرفنـي وهـو لم يـرنِ قـط.

انفصلتُ عن الفتاتين، ذهبنا معا أنا وهو، مشينا

بادر باللهجة الأمازيغية ـ هحليذ ـ أنت جميلة.

قلت بنفس اللهجة وأنت كذلك.

مشـينا قليـلا ثـم قـال المسـافة لوسـط المدينـة بعيـدة دعينـا نركـب الحافلـة، بعـد هنيهـة حـضرت الحافلـة اقتربنـا منهـا، جمـع غفـير، النـاس تتداخـل فيـما بينهـا، يتزاحمـون في فظاظـة كأنهـم مخلوقـات لا يحكمهـا قانـون ولا يردعهـا نامـوس لا تقديـر للكبـير لاحرمـة لفتـاة أوعجـوز ولا رحمـة للصغـير، الـكل يريـد أن يسـتعجل الركـوب ويمـضي لغايتـه في إصرار يسـابق الزمـن وكأنهـا آخـر فرصـة للولـوج للحافلـة في حياتـه، مـن حسـن حظنـا أننـا كنـا في المقدمـة أدخلنـي مقعـدا وجلـس بجانبـي كمـن يحميني وضـع ذراعـه الأسـمر محاطـا عـلى الكـرسي المقابـل لـه بينـي وبـين الجالسـين ورائي، تبـدو عليـه علامـات الصرامـة والنخـوة، والسـخط يمـلأ صـدره مـن الضغـط الـذي يكتـم أنفاسـنا مـن اكتظـاظ النـاس في الحافلـة، هاهـي فتـاة بمحـاذاة شـاب تَسُـبُّ وتـصرخ كأنمـا لدغتهـا عقـرب، ماتحشـمش، نظـر الشـاب فزعـا بعـين مـن يسـتجدي الصـدق مـن الـركاب مُظهـرا الحـيرة، واللـه مـا اعْملْتلْهَـا شَيْ، يبـدو أنـه تحـرش بهـا، انْفَجَـر شـيخ مـن الغيـظ واللـه مـا تَحْشـمُو ياجيـل البَخْـصْ، عمّـت الفـوضى وعـلا الـصّراخ واحـد يلعـن الفتـاة وآخـر يلعـن الشـاب، أمـا نـاصر اكتفـى بالحديـث بينـه وبـين نفسـه في تذمّـر، شـعب متخلّـف لا يسـتطيع الإنسـان أن يهنـأ في أي مـكان في هـذه الأرض، أسـتمع إليـه وأعماقـي تحـترق مـن الخجـل ومـن هـذه اللّقطـة التـي لم أحبـذ أن أحضرهـا وبالأخـص مـع نـاصر.

وأخيرا نزلنا مشينا قليلا كنا وكأننا لا نعرف المدينة، طفنا الشوارع ضعنا في أزقّتها، رغم معرفتنا الاثنين بها وفجأة وقفنا عند تمثال، كان شامخا شموخ جبال باتنة، الرأس تلامس الأفق كبرياءً وهيبة، بملامح أسطورية كاللتي نقرأ عنها في الروايات، تأملته بفخر وكلي نشوة، وقعت في حب التمثال.

كما تقول الأسطورة الإغريقية أن رجلا وقع في حب تمثال امرأة، صدقت الأسطورة.

هل تعرفين لمن هذا التمثال؟

لا

إنه الحاج لخضر

بلهفة قلت: الحاج لخضر!

الرجل الذي أرعب العدو، داعب الرشاش وقبلت أقدامه قمم الجبال، حتى أصبح آية في أفاق الانعتاق راهبا تسبح له الأكوان، تذكرت الأغنية الأوراسية التي لطالما تردت على مسامعي في الأعراس.

«الحاج لخضر ما تعقبش اليوم على المعذر جيش فرنسا عشّى مسركل «

رمز الحرية شامخ في عرض المدينة، شممت عبق الطّيُوب تنبعث من حوله.

بادر بلهجة التهكم هه رمز! وماذا فعل.؟

لحظتها أحسست أن التمثال يهتز وصوت يدوي يملأ الفضاء.

المدينة تختنق الزهور تحرق في الأعالي، ردوا لي روحي يا من تفقهون قولي، يسروا لي التربع بسلام أني أختنق أني أختنق.

تعثر الكلام في فمي وتحجرت الدموع في مآقي والمرارة تسلقت حلقي، والهم أثقل كاهلي، ولسان حالي يرتعش، يا ويلي ما هذا الظلامية الفاحشة؟

أصابني شيء من التقزز، من سماع هذا الاستهزاء بالرّموز الثورية، كم هو مُقرف حين نسمع شباب الاستقلال يسخر من سنوات الدّمار، الذي شهده كل

فرد من أفراد الشعب الجزائري والاستخفاف بقُدسيّة الجهاد، خلل في الذات نكران للذاكرة تطرف عشقي مهووس بالاحتقار، ونسوا أن هذا الاضطراب العاطفي والنفسي الذي يعانون منه، هو ذاته ناتج عما عانته الأجنّة من رعب في بطون أمهاتهم، فجاءوا للوجود بأفكار بلهاء، لا تؤمن بالقيم التاريخية، وتُلغي كل البطولات وتتحدث عن أناس ماتوا من أجل أن نحيا ونكتفي وننعم بالاستقرار.

كم يُرعبني مثل هذا الاستهزاء بالهم الإنساني، فقط ليشبع أحدهم رغبته الجامحة المطرزة بالجنون وبنزعة الإقصاء والجحود لمن كانوا ألمع من النجوم ووازوا بطهارتهم الأنبياء، وكانوا من الخالدين وما خانوا يوما قيّمهم رغم العناء والقهر الذي أصابهم، هذه الأفكار ريح عاتية تأتي على الأخضر واليابس، عقلية متحجرة مريضة متطرّفة، سنوات عجاف انقسم فيها المجتمع إلى عدة أصناف، متدين مهزوز من الداخل، حتى أصبح كالمُدية، بدل أن تستعمل في المطبخ، تستعمل لقطع الرؤوس .

ومتفتح يعتبر الدين حاجزا بينه وبين التحضّر، حتى آل به المآل لاعتناق عقائد غريبة عنه، وبذلك أصبحت أهواؤه، تفاحة الخطيئة، التي أخرجت آدم من الجنة، قلت في نفسي لا يهزأ بالرموز إلا شخص مهزوز من الداخل.

قمنا بعدما أحسسنا بالحرج من قبل المارة، التي كانت تحملق بنا، حالنا حال كل المجتمعات العربية تحسن فن الإحراج والامتعاض، نزعة نفسية مريضة نتميز بها عن باقي شعوب العالم.

ذهبنا للكفتيريا ولجنا الباب اخترنا طاولة منزوية، جلسنا.

قال: وأخيرا جمعتنا طاولة واحدة، جلسة عشاق.

لم أُعلق، اللقاء برُمّته لم يَرق لي.

واصل الحديث وأنا أُداعب نظارتي مرة، وأحتسي العصير مرة، أتسلق النظر

إلى وجهه علني أهتدي من ملامحه، عن شيء يفسر لي هذا الحزن الآتي من أعماقه، وهذه الحيرة البادية على محياه وهذا الارتباك في الكلام، يبدو كمن يحتضر، مرة يلامس قمة الأسى، ومرة ينزوي للسكون، ومرة يهتز مازحا نظر إلي حدق مليا، كما رأيتك آخر مرة، أنت كما أنت، قلت في غرابة وأين رأيتني؟ في بيتنا، فزعت، في بيتكم؟ لوهلة ظننت أنه مجنون، وكيف رأيتني في بيتكم وأنا لم أزركم في حياتي بل لا أعرفك أصلا ولم تطأ رجلاي قريتكم، بدا مصرا أنه رآني وأنني ذهبت هناك رفقة أخته، أكدت له للمرة العاشرة، أنني لم أر لا بيته ولا قريته ولا هو أعرفه، دون جدوى، حدثتني نفسي أنه مجنون ليلى، فصمت.

خرجنا من الكفتيريا، عدنا لمتاهة المدينة من جديد، وأخيرا اهتدينا لحديقة والتي لا تحمل من مواصفات الحديقة إلا اسمها، أغصان الأشجار مبتورة الأوساخ منتشرة هنا وهناك وأناس جاثية فوق الكراسي الحديدية الباردة متشبثة بها كأنها تهرب من واقعها المرْ، أفئدتهم هواء كأنهم خشب مسنّدة، أوراق الأشجار ترقص على وقع صخب الأيام، تارة تحط على رأسينا، وتارة تركع عند أقدامنا، وكأنها كانت تواسينا، أوراق الصحف متناثرة شاحبة، تشكو فاقة التصفح وتعاني الإهمال، أسماء شهداء، علماء، مهانة ومداسه بالأقدام. تأوه ناصر آهة، أحسست أنها مزقت أديم الأرض إلى أبعد مدى، تأملته مليا دون أن أقول شيئا.

أردف يسرد علي بعض المحطات من حياته، وللمحطات سحرها الغامض، الشيء الذي جعلني أستمع له بكل اهتمام.

طفولة، يعني مرح، يعني مجارات الفراش في لحظات الفرح، الإمساك بألوان قوس قزح، الجنون مهما علت الأسوار، والاستهتار بكل ما يؤرق الكبار، امتزج سحر البيان بسحر الألم، يسري حديثه لروحي دون عناء، يعترينني انبهار من

روعة الإبداع في تصوير ما يؤلمه، روح متمردة، شاردة.

أطلق نظره مسافرا نحو الأفق، في طفولتي حرمت من كل هذا، ثقلت أجفاني بكل ما يطبق الابتسامة على شفتي، الأب والأم يكدحان ولا يفلحان بسد لقمة العيش، يعملان عند أحد الأثرياء ينهضان باكرا، تحلب أمي الأبقار تأتينا بالفائض كأجر، ثم تكمل باقي اليوم في صنع الأواني من الطين لبيعها لأهل القرية، لم يثنها هذا العناء عن العمل الشاق، لم يرحمها قيض الصيف ولا برد الشتاء، أما أبي يبقى هناك طوال اليوم يكنس الإسطبل يرعى المواشي، يعود في المساء منهك القوى بعد أن يسدل الظلام على القرية، يذهب لفراشه البالي يتوسد كل هموم الدنيا، أسمع طوال الليل سعاله الذي كان صداه يصل حتى خارج البيت، وحين يصمت لبرهة، أنهض مفزوعا من فراشي أتحسس المكان برجلي حتى لا أطأ إخوتي العشرة الذين كانوا مصطفين واحدا تلو الآخر، أجس كتفه برفق لا أفارقه حتى أتأكد أنه يتنفس، ثم أعود لمكاني وقد أخذ الرعب آخر جرعة النعاس التي كنت أتحايل عليها حتى تأتيني، مع الفجر هاهو ينهض ليتوضأ بالماء البارد في حوش المنزل، كثيرا ما أتساءل في نفسي، كيف يتحمل هذا العناء بل ويستمتع به، فحين يؤدي الصلاة كأنه عندليب يتفنن في تغريده من تغريدة لأخرى، أمي هي الأخرى تبدأ معاناتها مع نفس التوقيت تستجدي عطف الجذوة كي تشتعل، بعد برهة من الزمن يبدأ الأمل يتوقد قليلا قليلا فتشتعل النار، لتعد لنا فطور الصباح، الحليب الفائض عن حاجة الثري وكسرة بلون الطين التي تعمل بها أوانيها ، نستعد نحن للذهاب للمدرسة والتي كانت تبعد عن بيتنا بعدة كيلومترات، بيتنا! عن أي بيت أتحدث، قولي كوخا ليس فيه أدنى شروط الحياة التي تجعلنا نحس فيه أننا بشر، كنت أنا أصغر إخوتي وأنحفهم لا نصل إليها إلا بشق النفس، أحيانا في أيام الشتاء يصادفنا واد تغمره المياه فيضطر أخي الأكبر لحملنا واحدا

تلو الواحد حتى نجتازه بسلام، فحين نصل متأخرين، يستقبلنا مدير المدرسة والشرر يتطاير من عينيه يصرخ فينا، واش تمشو على عينيكم للمدرسة نظام، ترتعد فرائسي من غلظته يتراءى لي كأنه جلاد أو حارس سجن، قلت هذا كله من مخلفات الاستدمار، الذي نهب كل شيء لم يترك سوى الخراب، رد علي بغيظ ليس الاستعمار، فهمت أنه سيبدأ بقول التفاهات، قاطعته أنا يجب أن أذهب، أخشى أن لا أجد المواصلات، وفي الواقع، أردت أن أوقف هذه الموجات الراعدة، الآتية من عمق هذه الروح المهلهلة، وأنجو بنفسي نهض وهو يقول لا هذا وقت الغداء هيا بنا للمطعم وبإصرار قال: نلتقي لأول مرة ولا نتناول الغداء مع بعض، تبعته الكل غاد رائح، غمامة الحزن تلف المدينة، الناس تتداخل فيما بينها، التيه باد على محياهم، الباعة المتجولون، القابعون على الأرصفة، الكل يروج لبضاعته، أضواء المدينة سرقت عقولهم، تاه البعض في عتمة الأزقة، ماتت أرواحهم وذوت أجسادهم من ظلم المدينة، منهم الباهت الذي يحملق في اللاشيء، يموت في صمت، ومنهم المتحرك رغما عنه ينافق مع الحياة ويساير الأيام كي يوهم نفسه والآخرين أنه ما زالت بداخله عروق حية تستوجب الاهتمام، ومن بينهم شاب في مقتبل العمر، بقميص تقليدي أبيض (قندوره) ، ولحية كثيفة سوداء كالليل البهيم يوسفي المحيا، تقاسيم تأخذ الألباب، يلعب ببطيخة بقدميه، وهي تتهادى على الطريق مرة ترتطم بالرصيف ومرة تقبل قدميه الحافيتين البريئتين وتعود مرة أخرى إلى الرصيف يعيدها بقدميه، وهو يرمقها بنظرة حميمة، ثم يلتقطها بين ذراعيه في حنو وهو يبتسم .

قلت لناصر، تبا لزمن يختصر في بطيخة، كان منظرا رق له قلبي وارتجفت له أوصالي ودمعت له عيناي، في هذه ألأجواء المتأرجحة على حافة الهاوية وهذا الجنون الساكن المتحرك، أدركت أننا كلما اتسعت مداركنا زادت معاناتنا .

قلت: والله استراح هذا الشاب من عقله.

قال: بلهجته المعهودة المتحاملة هذا هو الإسلام.

قلت وما دخل الإسلام في هذا الذي يحدث.؟

قال: هذا أحد ضحاياه

قلت: بل ضحية من ضحايا التطرف الديني والجهل به والوضع الاجتماعي الصعب.

قال: الإسلام مجرد ترهات، يدعمه مشايخ الجنس وجمع الأموال وبيع الأهواء للناس.

قلب مريض يأتي على كل ما هو جميل، قلت هذا بيني وبيني.

آه كم يلزمني من الصبر، حتى أصمد أمام هذه العبوة الناسفة للسموم، تأوه هو الآخر، امتزجت آهته بآهتي استغربت لهذا التلاحم النفسي والتضاد في الأفكار، لفت نظرنا مطعما أخذتنا خطواتنا إليه دون أن ينبس كل منا ببنت شفة، يبدو أنه خاب ظن كل واحد منا في الآخر، دخلنا، رافقنا النادل للجناح العائلي، جلس قبالتي على الطاولة، أخذ مني الأوراق، كانت تتضمن بعض كتباتي أراد أن يتفحصها، قلت دعها حتى تذهب للبيت، امتدت يده لأول قصيدة صادفته تحت عنوان «كاهنة تعود من ألف عام « قال كاهنة أنت عدت من أجلي، قلت إن وافقت أحلامي أحلامك وتلقيتها برفق وكنت الراعي الأمين لها، وكنت كما القمر يدور حول شمسه ولا يخلف موعده أبدا دون أن يلتفت لباقي الكواكب ، قال آآه أنت راح تكون مشكل كبير في حياتي، وأردف بيقين العاشق قائلا :

jamais je t'aimais et je t'aime et je t'aimerai

بادرت يا لطيف أنا ما نَحبْشْ انْكُونْ مُشْكَلْ، انْحَبْ انْكُونْ حَلْ لمُشْكَلْ جاء النادل وضع الأكل، كنت كمن يأكل ولكن في الحقيقة كنت آكل الحيرة وأحتسي

الخيبة، كان قبالتي رجل وامرأة، الرجل ملتحي، يرتدي سروالا قصيرا وقميصا حتى الركبة الزى الغريب الذي غزى مجتمعنا، والمرأة متحجبة منقبة، كان يرمقني بنظرة تنم عن حقد دفين، وكأنني ارتكبت جرما، كنت أقرأ أفكاره، وهو يقول لي، لا يجدر بك أن تجلسي مع شاب غريب عنك، قلت في نفسي، وأنا أتحاشى النظر إليه، ما أدراك من يكون من معي، وما أدراني من تكون من معك، إنه المجتمع في تلك الحقبة، العقلية التي سادت آن ذاك، الكل ينصب نفسه وصي على تعاليم الله وأنه وحده يطبق الشرع ويفهم العالم بكل تفاصيله، هو الفقيه، الوصي والولي، تفشى المرض حتى أصبح الكل يفتي، والدين يقاس باللحية والعمامة، فوضى عارمة أتخمت المجتمع بكل مصائب الدنيا زينت أفق الوطن بلون رمادي مخيف، الشيء الذي كلف الإنسان الجزائري الكثير من الأمان.

دفع ناصر الحساب، خرجنا نتجه لمرفأ السيارات، لم يتكلم كل واحد منا، كان الصمت يغلب علينا هذه المرة، فجأة كأنما هب من رقاد تذكرت لا تذهبي الآن أرجوك، أريد أن آخذك لمكان أحبه كثيرا، أي مكان؟ لا تسألي اتبعيني وفقط، غير ممكن أنا لم أتعود أن أتبع شخصا دون أن أعرف إلى أين سيأخذني أريد أن أريك مكان فيه أحس بألفة وبشيء غريب يحدث معي، فيه أشم رائحة تعربني تأتي من أزمنة غابرة مكان عتيق لن تندم حين ترينه ستشكرينني، أين وما هو هذا المكان الذي استحوذ على كل كيانك؟، كنيسة جميلة جدا قريبة من المدينة . كنيسة !؟ لمَ تستغربين أليست الكنيسة مكان يستحق الاهتمام؟ بلى أحب الأماكن الأثرية في حياتي لم أر كنيسة أحب ذلك، أخذني من يدي وطرنا كعصفورين في الباص الذي كان يعج بالركاب، محظوظ من اختار لنفسه مكانا أما الباقي يقف وسط الحافلة في طابور متراص، قال ناصر يعرفني بالمدينة، تازولت عاصمة الرومان في إفريقيا صنعت من قبل

الإمبراطور هادريان سنة 126 وفي النصف الثاني من القرن الثالث تحولت من مستعمرة لعاصمة نوميديا لمباز تسمية رومانية وهي من أهم المدن الأثرية في الجزائر بها محكمة رومانية ومباني عسكرية والكنيسة التي حدثتك عنها، بدا لي وكأنه أستاذ تاريخ أوعالم آثار أخذني في رحلة زمنية سافرت في عالم المعلومات بعيدا لعوالم ساحرة، مباني قديمة تعود للحقبة الاستعمارية بأسقف آجورية نوافذ مستطيلة بألوان باهتة بفعل الزمن، لها سحر خاص لا يحس به إلا من عايش فترة الاستقلال الأولى حيث كان للفرح نكهة الغفوة الجميلة، مدينة أثرية بامتياز كنت مأخوذة بما رأيت، متحف في الفضاء طبيعة ربانية تسلب العقول تجمع بين عبق الماضي وسحر الحاضر الغائب، نشم رائحتهم التي تأبى أن ترحل فالرائحة ذاكرة وفية للأمكنة والأزمنة التي عايشتها، تذكرت مدينتي قايس التي اغتصب الإسمنت عذريتها شاخت أحياؤها ضاعت ملامحها، فقدت قيمتها المعنوية والمادية، تحيا بذاكرة حرجة مجروحة شُوهت كرامتها، لم تعد رائحة الياسمين تحلّق حولنا، حينها كان كل موسم برائحة مختلفة تُنبؤنا بقدوم الفصل قبل أن يصل، أُقتُلعتْ أشجار وانمّحت بساتين سُدت ينابيع ورُدّمتْ سواقي وغادر ذاك البهاء إلى غير رجعة، المكان تعمه الرهبة تحس بأشباح الذين غادروا، حضروا ليقاسموك اللحظة وسرها الخفي، جلسنا على الكرسي قبالة الكنيسة تأمّلت الساعة الكبيرة أحسست أنها تخبرنا أن الزمن ليس لنا، الصمت يلف المكان، هذا ما تبقى من زمن كان يرقص من فرط الانتصارات، كان هو غائبا عن الوجود في حالة تعبد، يبدو كمعتوه لم يجد ضالته، في لحظة هممت أن أسأله هل أنت مسيحيي ؟ لكن عدلت قلت في نفسي هو مجرد عشق للأماكن الساحرة، ليس من المعقول أن أذهب بعيدا بخيالي أكيد هو مسلم أبا عن جد، توهمت أنني أسمع ترانيم القداس تأتي من الداخل وقرع النواقيس ورأيت نفسي ونحن نشاركهم الحفل، شرعوا في

الصلاة بكلمات مبهمة لم نفهم منها شيئا والسيد المسيح مصلوب على الحائط بدا كمن يستغيث، رائحة البخور تعبق المكان، أخرجني من غفوتي قائلا هل أعجبك المكان؟ قلت رائع، ألم أخبرك ؟ خسارة ذهب جهد المسيح أدراج الرياح كل النواميس التي أتى بها اعتراها التحريف، بادر كمن يهاجم ومن أين لك بكل هذا اليقين؟ وكيف تثبتين العكس بالنسبة للقرآن؟ غضبت بشدة قلت يبدو أن وجودي هنا ليس له أي معنى أعتذر يجب أن أغادر، هل غضبت؟ ألا تؤمنين بحوار الحضارات والأديان والتحامها والتسامح فيما بينها، ألا تتفقين معي أن كل الأديان تنبع من منبع واحد وتصب في معنى واحد الذي هو الرحمة؟ بلى، أنا لست ضد المسيح أحبه وأحب الحبيب المصطفى رسول السلام، وأين السلام هل ما نعيشه سلام؟ الآن وفي هذه اللحظة ربما هناك من يتربص بنا لقد نصبوا أنفسهم أوصياء على الملل، شرطة على بوابات العقائد ونزهوا أنفسهم عن كل صفة بشرية، كل من هو معاد لأفكارهم مدنس مع أنهم هم الذين دنسوا كل ما هو جميل، لا ينجو من يخالفهم ولو دخل في جوف أمه، اختبروا كل أنواع التحري يستشعرون رائحة فريستهم حتى عن بعد أنهم يروننا من حيث لا نراهم كأنهم أشباحا . قلت هذا قانون الطبيعة، الجريمة أبجدية البشرية الأولى نزعة السطو والقوة، ما نعيشه مجرد محنة منعطف خطير سيستقيم الأمر في النهاية، تراهنين على ذلك . نعم، يبدو أنك طيبة زيادة، بدأت تهب نسمات مسائية الخريف تنبؤنا أن الشمس بعد سويعات تستأذن بالرحيل وعلينا المغادرة.

وصلنا إلى المحطة، وحين هممت بالانصراف، أخرجت مصحفا من حقيبتي، ناولته إياه، بادرت هذا هدية مني إليك، أمسك به، صمت، رمقني بنظرة طويلة فيها الكثير من الريبة، كانت يداه ترتجفان، حدقت فيه، أحسست بكل الأسلاك تختلط برأسي ومئات الأسئلة تجنح من حولي والاحتمالات

تضطـرم بصـدري، لم أفهـم شيء مـما رأيـت ودعتـه وانصرفـت.
كانـت رحلـة كلهـا غامضـة، كان قـدرا رائعـا مراوغـا، منعطفـا خطـيرا هـذا الـذي يحـدث الآن، فالزمـن ورطـة حـين تتجـاذب فيـه الأرواح وتتصـادم فيـه الأفـكار.
وأنـا في السـيارة أدرت رأسي للفضـاء، أفكـر في الغمـوض الـذي اعـترى هـذا اللقـاء، كنـت أتأمـل الجبـال والوهـاد.
قلـت يـا شـجر الـصرو ويـا تربـة الطهـر، أمـن صلبـك يولـد جاحـد لصمـودك في وجه الطغـاة ويخـذل شـموخك الأوراسي، والشـمس كانـت تنـير لي كل المعـالم بوضـوح، شـمس اثنـان وسـتون، غـير شـمس اثنـان وتسـعون.
آه يـا شـمس، دفـؤك بـارد ونـورك مظلـم، أتخيـل المعـارك الضاريـة بـين الفدائيـين والمسـتعمر، وهـم يـرددون : «مـن جبالنـا طلـع صـوت الأحـرار ينادنـا لاسـتقلال وطننـا» وأنـا أجـول بخاطـري في قمـم الجبـال، أرثي حريـة ثـكلى، جـادت بذريـة تتنكـر للثـورة والثـوار، هـذا فظيـع، حـين يتنكـر الأحفـاد للآبـاء بالأبـوة ويسـتخف بنضالـه .
أفقـت عـلى صـوت رجـل، كان بجانبـي يقـارب السـتين أو يزيـد لكنـه مـن فـرط جمالـه يبـدو أصغـر وأروع، وهـو يقـول مـا بـك بنيتـي، مريضـة ؟
لا يا عم مرهقة قليلا، فقط.
من تكونين ؟
من عائلة سي مزيان
قال:سبحان الله! عمك سي الحواس ؟
نعم
كنـت رفيقـه في الجهـاد، أدرت وجهـي نحـوه، وإذا بي أجـد رجـلا يـكاد يـضيء مـا حولـه، بأنـف شـامخ لحيـة خفيفـة مرسـومة بعنايـة، والشـيب يتداخـل شـعره يتربع عـلى الذوائـب فـزاده وقـارا، كتفـين عريضتـين تميـل قليـلا للانحنـاء، أحسسـت أنهـا

تظللني كخيمة بأشرعة، ملامح أوراسية الهيبة، جزائرية الكبرياء، سمح الروح، رمقني بنظرة حالمة جريئة أمازيغية العشق، نظرة أحسست أنني سأواجه رياحا عاتية لحظتها وقفت بين نقيضين الماء والنار، أدركت أنني أمام جبار يمتهن الفداء بابتسامة، وإذا بالرجل أخذ يسرد علي كيف كان عمي يواجه المستعمر، ومغامراته معه في الجبل، وكيف أطاحوا به أكثر من مرة، وقد كان عمي سي الحواس، حكيما رصينا في تصرفاته، حتى جعلوه قاضيا يحاكم الخونة، وكيف سافرا معا إلى فرنسا، وعملا هناك سويا، وكانا دائما الاتصال بالأخوة، ومن بينهم ذكر الحاج لخضر، وما إن سمعت اسم الحاج لخضر، حتى زاد شغفي للاستماع أكثر.

قلت بلهفة تعرف الحاج لخضر؟

نعم

بالله عليك يا عم أن تحدثني عنه

آه كان رجل شجاعا مقداما، أول من ساهم مع الأبطال في إشعال فتيل الثورة بمنطقة الأوراس، أضل المستعر وأذاقه ويلات الخيبة، ساهم في توسيع الخلايا السرية، كان قائد الولاية الأولى التاريخية، كون الرجال وجمع بين أبناء المنطقة، والذين ينضمون للجبهة من كل الناحية، قايس، خنشلة، بوحمامة، يابوس، المعذر، تيمقاد، باتنة، كان مثلهم الأعلى الذي يقتدون به، اعتبروه الأب الروحي الذي يستمدون منه القوة.

قلت هل كان جميلا ؟

ابتسم الرجل ، كان جميلا مفعما بالرجولة

قلت : في نفسي والله لن تضيع الجزائر، مادام هناك رجال مثل هذا الذي أرى، فلم أنعم كثيرا وأهنأ بهذا الإحساس.

حتى صرخ أحد من الركاب، بلحية كثيفة تهوي لأسفل الذقن، مخضبة بحناء،

عينين يلفهما الكحل نظرات حادة توحي بحقد دفين تنم عن شخصية متطرفة، تكفر بكل الذي كان يسرد الرجل حين استدار، استولى علي الفزع من منظره، أكثر من نصف جيل ذهبت ريح الفتنة بقيمهم وغابت من وجههم البراءة ونضارتها، فَخَلَفَ خَلْفٌ أدمى الروح والحقد تبنته العقول فأورثهم غربة في النفس، مفاهيم عجيبة مظاهر التقوى في الواجهة وبالمخبر تسكن كل الآفات العنجهية، التعالي على الخلق، التحقير للذات الأخرى شوهوا الدين وألحقوا به الترهات، مما جعل النفور يتسرب لقلوب الناس فأصبحت الدنيا بحجم سم الخياط، اللون البني والأسود يطغى على الأكتاف حتى الحناء شُوهت لم تعد للأفراح كما عهدناها بل ضُمخت على اللّحَى، والكحل تبرأت منه الغواني حين استقر في عيون الرجال، الريبة تمشي على رجليها في كل مناحي الحياة.

يبدو أنه كان يسترق السمع دون أن ينتبه إليه أحد.

بلهجة التهكم قال:

وماذا فعلتم، هل حقا أخرجتم فرنسا بدباباتها وقوتها بالخناجر والعصي؟ أنتم كنتم شعب فلاح، لا يتقن أي شيء، غير الزرع والإمساك بالفؤوس والمعاول ورعي المواشي.

قاطعه عمي محمد يا بني ثورة الحق فلاح حتى بأبسط سلاح.

قال: كفاكم كذبا على الناس، صُدمت حتى الفزع مرة أخرى.

قلت في نفسي، ما هذا الذي أسمعه؟ هذا يوم مشؤوم من صباحه حتى مسائه يا إلهي!

رد عمي محمد يا بني المقاومة كانت في كل التراب الجزائري رجال أول نوفمبر كانت لديهم عبقرية خاصة، قاطعه الشاب مستهزءا هه.. عن أية عبقرية تتكلم يا رجل فرنسا سئمت من غبائكم حتى قالت عنكم ترويض الفيلة أسهل من ترويض الإنسان الجزائري، الاستقلال كان هبة من فرنسا، فثار آخر

كان على يساري متوسط العمر ببنية قوية حسن المظهر، نظر إليه بحدة، يبدو أن غيرته على الجزائر جعلته ينطلق كالشرر.

ما هذه الوقاحة؟ كيف تتكلم عن أبائك الأبطال الذين جعلوك تنعم بالحرية، وثار آخر، وحتى قائد السيارة اغتاظ من كلام الشاب، وكاد ينشب عراك.

قال: إيه يا ولدي هذي هدرت لوسع عيب عليك.

أما عمي محمد لاذ بالصمت، وأحسست أن حزنا كبيرا سكن أعماقه ولم ينبس ببنت شفة.

ومن الخلف نطق شيخ قائلا: « إيه إذا تخلتط وتجلتط وطلع خزها على ماها وكثروا رياسها ثمة أسباب خلاها » وصمت حكمة بليغة، التفت وإذا بي أرى رجل ضخم بشاربين طويلة يرتدي معطفا بني وعلى رأسه شاش أبيض تعتليه سفرة وآثار الغبار بادية على كل ملابسه، يبدو أنه موال من الطبيعة البسيطة، التي لا يعنيها حكم ولا سياسة ولا يأبه لبهرج المدينة ولا بسفسطة أهلها.

السفسطة: وهي كلمة يونانية مشتقة من كلمة ـ سوفيتس ـ أي الحكمة أو المعلم وهي ظاهرة فلسفية نشأت في بلاد الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد وتطلق على أدعياء العلم والفلسفة مع أنهم يملكون ثقافة ضحلة، أي أن المصطلح يقال للذي يموه الحقائق مع فساد المنطق وصرف الذهن عن حقيقة الأحوال الصحيحة وتضليل الخصم عن الفكر الحقيقي.

بينما استمر الشاب بالتشدق، والتحقير بكل ما كان من الثورة والثوار، وحين وصلنا هممنا بالنزول بادر الشاب واش عمي محمد أنا على صواب، رد عليه وبكل رصانة، سلاما، رمقني بنظرة وغادر.

وما إن نزلنا من السيارة، رأينا أطفالا وأناسا مجتمعون تقدمنا فإذا بنا نفاجأ أن رأسا معلقة فوق عمود.

أصابني ذعر رهيب، رأيت عمي محمد وقد ارتعدت فرائسه، همهم بينه وبين نفسه، بصوت لا يكاد يسمع قائلا : « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » صدق حبيبي رسول الله.

ثم أردف وهو يضرب بيديه على ركبتيه، يا وخذي على الجزائر، نظر إلي، بادر ليتني مت قبل أن أشهد مثل هذا اليوم، تملكتني الخيبة، غادرت مطأطئة الرأس أمشي كمن يمشي إلى قبره، اسودت الدنيا في عيني، اليوم كان عجيبا غريبا، وأنا في الطريق لم يكن يشغلني سوى عمي محمد، ودون وعي مني وجدت نفسي رهينة تلك القيم الأفلاطونية، التي أفتقر أليها الكثير من الشباب، تذكرت التيه والضياع اللذان وجدتهما عند ناصر، حتى ندمت على لقائه، مرت الأيام، والأضداد تتصادم بداخلي والوهم يزاحمني يفكك يقيني يلغم دواخلي ليحرق بياضها ويحولها لرماد

العم:

جلست على ركبتيه أنزع شاشه أمرر يدي على صلعته، أقول له أين شعرك؟ يرد كلاه الزمان يابنتي، أُدندن ويدي مازلت تمسح على رأسه « ياراس المحنة لله كلمني، جيت نسالك وأنت لاترد جوابي، حشمتك بالله كلمني هذا وطنك ولا جيت براني، ياراس بنادم لله كلمني، ياذا الراس الباقي في بلاد القفرة دعيتك للجواد الخالق القيوم من باعث الوارث خالق لا يُرى، مدام الدهر وليام ليك الدوم، أزرع فيك الروح وعيدلي كيف جرى، حدثني بلي جازوا عليك هموم، ياراس الغربة لله جاوبني «تنزل دمعتين من عينيه، يبادر واش نحكي يابنتي هذا راس لغرايب، ماذا جوزت من محان وتجولت فالبرار لعبت مع الغزلان وصارعت الوحوش، ضاع في أزقة مرسليا وأنفاقها صارع كالثور الهائج مجانينها الذين كانوا يلعبون معهم لعبة لكويردا ليس ببساط أحمر بل ببساط مطرز بالدم والرصاص، أعتذر منه أمسح دمعتيه،

أفرك لحيته، وأنا أتهادى في دلال، عمي بهي الطلعة، قوي البنية، يحسن فن الحديث فهو من خريجي الزيتونة، دخل والدي طلب مني أن أذهب، لأعين أمي في بعض شؤون البيت.

كلمات الأغنية للفنان البار عمر

بنتي انتاع لقلم والكراس، قال عمي، وقد لاح له ملمح مني أنني أحب التعلم، كنت أناقشه دائما في بعض الأمور الثقافية، يمتحنني من حين لآخر، وكثيرا ما يبادر ما معنى هذه الكلمة، وماذا تريد أن تقول هذه العبارة، وفي أغلب الأحيان كنت أربح الرهان، يبتسم والدي، يبادر إيه بنتي تتكلم لغة الملايكة، في يوم وجدني أكتب خاطرة، قال ماذا تفعلين قلت له أنني أكتب شيئا، طلب مني أن أقرأ عليه ماذا أكتب، قرأت عليه الخاطرة حين انتهيت من القراءة، قال لم أفهم لكن أحس أن هذه هي لغة الملائكة، قلت صدقت دَادَّة والله إن الإبداع هو لغة الملائكة، ولأنه يقدس أخاه الأكبر ولا يرد له طلب حتى أنني أحس أنه لو طلب منه روحه لأعطاها له دون تردد، تركنا ومضى، أخوة حقيقية أخوة لم أر لها مثيل، مسك بيدي بنيتي أنت كسرت قانون الطبيعية، لم تولدِ من ظهر أبيك فحسب بل من دمه أيضا.

قلت في غرابه كيف !؟

قال: ذات مرة استدعوه في مركز الدرك الفرنسي، بتهمة التعاون مع المجاهدين والتآمر لحرق فرمة ميشان، كما يدعوه ناس الدوار معمر فرنسي عرفته بعد الاستقلال، تزوج من امرأة جزائرية كانت تشتغل عنده، زوّجَتْهَا إياه زوجته الفرنسية لأنها لم ترزق الذرية، هذه الأخيرة حولت حياته إلى جحيم تعامله بقسوة، وكأنها تنتقم من فرنسا، كثيرا ما أراه يلتقط فضلات المواشي، يجلب الماء من البئر وإلا حرمته من تناول وجبته الغذائية، أحيانا تجلبه رجلاه لبيتنا حين يحس فرطا من الجوع، القبعة لا تفارق رأسه ومعطفا أسودا ينسدل

تحت الركبتين بقليل يطوق رقبته بطوق معطفه ويسقط رأسه إلى الأمام كأنه يخبؤها خشية أن يراه أحدا أو يضمه بكلتا يديه فوق خاصرته وكأنه يخاف أن تهرب نفسه من بين جنبيه هو وصديقه بروس حارس المدرسة التي أُنشأت حديثا بالدوار، وهذا الأخير شخصية تميل للبله يمشي مترنحا كأنه عاشقا أضاع صوابه أو طفل لم يبلغ الرشد بعد، حين يتكلم يميل برأسه يمينا وشمالا وهو يضغط بكفيه يعيش مع زوجته تبرَ والتي لا تقل عنه بلاهة، كثيرا ما يشهد الدوار عراكهما الدائم بسبب غيرته المرضية مع أنها تبلغ من العمر أربعين سنة وتبدو كأنها في الستين، يتهمها أنها خانته مع أحد العمال الذين يعملون بالمدرسة وفي يوم أخذ يطاردها وهو ما سكا بسكين وهي تعدو حافية الرجلين سافرة الرأس من هلعها هرع العمال لنجدتها يصرخ خاينة، خاينة، هذا لأنها قدمت لهم إبريق قهوة، بادر أحد الشبان مرتك زينة في تهكم أراد أن يتسلى مع أصحابه ولكنه كاد أن يتسبب في كارثة، تبرَ تجري أمسكوا به وتركوها تكمل عدوها، يبادر إيه رحلت فرنسا وارحل معاها بابا بيار واما تريزه، يرد عليه والدي خوه اقتل باباك وهو خلاك تسرح عندو لحلالف ومرتو تبعثك تشرلها لانيزات، لا لا رباني كي ابنو، يقاطعه ميشان فغنسا ماهيش مليحة خويا بغوس قتلت صاحبي معنصغ قدام عنيا خلقت بنا وبين خاوتنا الجزاغيين فتنة كبيغة، وقد عرف عنه أنه كان يناصر القضية الجزائرية ولم يكن راض عن الأفعال التعسفية والظلم الذي كان يقع في الجزائر، فحين جاء الأمر بحرق بيته لم يرض الأهالي بحرقها، لكن قيل لهم أن الأمر لم يستثنه فلذا وجبت الطاعة، بلكنته التي كنا نقلدها ونحن صغار، يقول لوالدي، شوية كسغة، يأمرني والدي أتيه بكسرة وإناء لبن، وحين يفرغ من الأكل يمسح شاربيه، يحمد الله، يقبلني يشكر والدي ثم ينصرف هو وصديقه .

عذبوه أحرقوه، كهربوه أقعدوه على الجمر، كمموا فاه وصبوا عليه الماء، وهو يصرخ ماء، ماء، وفي الأخير تذمر الجندي، لكمه على وجهه أصابت الضربة أنفه فسال الدم بغزارة، ملأ أبوك كلتا يديه بالدم وشربه، ارتعدت فرائس القائد من المشهد، صرخ في زميله كفى دعه يذهب، وفي يوم مولدك أشرقت الدنيا بنور ربها، يومها اختلفنا على تسميتك، قال ابني البكر سموها حورية لأن بميلادها بزغ فجر الحرية، زينت آفاق الوطن، قال أبوك نسميها نورة لأن النور انبلج بولادتها، وقلت أنا بل الكاهنة، ابنتي ستواصل النضال تنير الدرب، هي وجيلها، تزهر الحياة ويبتسم أديم الأرض والسماء.

طرق الباب أسرعت لفتحه، كان عمي محمد، تملكتني الدهشة سعدت لرؤيته ثا نية

عمك بالبيت ؟

نعم

أخبريه أني جئت لزيارته

أخبرت عمي قال: في دهشة محمد الذي كنت تحدثيني عنه قبل قليل! وكنت قد أخبرته، أنني التقيت بأحدهم يدعى محمد

أدخليه ذاك صاحبي لم أره منذ زمن

يا رجل وينك ؟ هذا زمان

رد عمي محمد ظروف ومشاغل سرقتنا من أحبتنا

أمرني عمي أن أحضر القهوة.

عدت بصينية القهوة، كان عمي محمد يحدق بي، كادت الصينية تقع مني، تتهادى بين يدي من اليسار لليمين، كأنما أصابها دوار ثم تعود لتستقيم، يبدو أن أسلاك الرعشة الكهربائية التي تقبع بدواخلي شحنتها عن طريق أناملي، لم أستطع إخفاء فرحتي، فتفشى عطر الحب، تخيلته جاء لخطبتي، وهو ينظر

إلي بنظرة خائنة، وبدوري كنت أسترق النظر إليه، أحسست أن عمي، أحس بشيء من الخيانة، والحيرة تعتلي محياه، ينظر إلي مرة، وإلى عمي محمد مرة أخرى، كأنما عيناه عقارب ساعة ضيعت وجهتها، وبعدها تجاهل الأمر، ثم طلب مني أن أحضر له عشبة الشيح، هم أناس تعودوا على المر حتى ألفوه وأصبح نكهة يتلذذونه في كل مناحي الحياة،

بادر يسأل عن أحواله.

بخير، بخير، يا سي الحواس ، قالها دون طعم

وبدءا يسترجعان بعض الذكريات

بادر أتتذ كر يا سي الحواس، أن ابنة أخيك كاد أبوها يوما أن يصير شهيدا

رد عليه، إيه وهل ذاك يوما ينسى؟

يا بنيتي، في يوم كان أبوك، وكل أهل الدوار يقيمون وليمة للمجاهدين افتعلوا عرسا، كي يروا بعض أحبائهم وأبنائهم، ويتزودون بقليل من المؤن، ويقتصون بعض أخبار المناضلين، ليخبروهم عن خطط المستعمر، وشى بهم أحدهم في لحظة، وجدوا دورية من الجيش الفرنسي تطوق المكان، وصارت مشادات بينهم، تذكر عمار شباطي الذي قتل قائد الدبابة ثم قفز فوقها وأخذ يسقطهم واحدا تلو الآخر حتى استشهد.

قاطعه عمي إيه، عمار رجل فحل شجاع ليس كمثله أحد، كان أسطورة.

بادر عمي محمد تعرف، كان يقول لي والله قشابية الخوذير، تنزلق من فوقها الرصاصات، كأنها درع فولاذي، تذكرت أمي حين قصت علي، أنها حاكت هذه القشابية لأبي، كي يحتمي بها أيام البرد القارص وشتاء الأوراس لا يحتمل، فأعطاها لعمار شباطي في يوم كان يمر بالدوار.

إيه أيام كان الواحد منا يؤثر أخاه على نفسه كنا نقتسم حتى اللقمة، زمان النية والأخوة، قالت أمي: أحرقوا كل شيء حتى المواشي لم تسلم، أخذوا

الرجال للسجن، وفي لحظة، وقف جندي صوب بندقيته نحو أبيك، فتدخل جندي آخر فأزاحها لوجهة أخرى فنجا بأعجوبة، الكل كان ينظر في دهشة رفع يده اليمنى مسح رأسه كأنما تلك المسحة كبست على زر للتذكر تبسم آه واش تعمل بنتك فضلة الموت آ، لويزة، إيه، تزوجت راه عندها عايلة، الله يبارك، كثيرا ما أسمع عمي وهو ينهرها اسكتي هنّي روحك يافَضْلت الموت، وللتسمية قصة، بدأ بسرد أحداثها ينظر إلي حينا، يحط يده على ركبة عمي حينا آخر، يرفع ذراعه والساعة الذهبية تتلألأ في معصمه كان مهيبا في كل حركاته وقوله وصمته، في الحقيقة أنا سمعتها من الويزة نفسها مرات عدة بمحاذات جبل بوخاشة طائرات الهليكوبتر، الكوبتير كما تسمى من قبل الأهالي آنذاك، تغطي الجبل وبعد هنيهة عج المكان بالعساكر ببدلاتهم الخضراء وقامتهم الفارعة الطول ونظراتهم الحادة التي أرهبت الويزة هرولت وهي تهش على الشويهات التي كانت تسرحها، بدأ الاحتدام يبلغ أوجه بين فريقين العساكر والمجاهدين المتحصنين وراء الصخور والبيوت، تنفلت الرصاصات من أحد الجانبين، هاهي تقفز وتجري والرصاصات تخترقها ترفع الرجل اليسرى تمر بجانبها عن يمينها عن يسارها من تحتها من فوقها والويزة تصرخ في هلع، إنه الموت حين يخطئ أحدنا يلعب معه لعبة المراوغة والمراودة، باتت ليلتها تهذي، الرصاص الرصاص، وأمها تهدأ من روعها ترتل في أذنيها ما تيسر من القرآن الكريم، تنام تهدأ قليلا ثم يعاودها الهذيان، نجت من الإصابات الجسدية لكن الإصابات النفسية ستلاحقها طوال حياتها، إنها الآثار الجانبية لأي حرب، حرب غير عادلة لا تفرق بين الصغير والكبير ولا القوي ولا الضعيف همها الوحيد أن تستعبد العباد وتنهب خيرات البلاد في هذه اللحظة، دخل عمي عبد الحفيظ الابن البكر لعمي، ابتهج وجهه حين رآه، عاد بعد عشرة سنوات من الغياب، سلم عليه احتضنه بحرقة، أدار يمنة، صاح آ عمي محمد

عـاش مـن شـافك تركتهـم ومضيـت، زوجـة سي الحـواس لَالاَّ فطيمـة تنتظـر في الغرفـة المجـاورة منـذ عـشر سـنين، بحرقـة الأم المفجوعـة لفـراق ابنهـا، متلهفـة لرؤيـة ابنهـا عبـد الحفيـظ، قبـل يومـين في بيـت العائلـة الكبـير والـذي يبعـد عـن المدينـة بكيلومتريـن، أمـام كرمـة، كنتهـا واقفـة وهـي تمـد يدهـا لقطـف حبـات مـن ثمـار التـين وإذا بشـيخ يخـرج عليهـا فجـأة كأنمـا هبـط مـن السـماء، مسـاء الخـير بنتـي رفعـت رأسـها فزعـت، همسـت لَالاّ منـين اخـرج هـذا، بـادر ماتخافيـش بنتـي مـدي يديـك لسـما، رفعـت كلتـا يديهـا سـقط في كفيهـا قطعـة مـن الجـاوي، راه عنـدك ريشـة مـن ريشـاتك أمـا بُـوك ولاّ خُـوك ولاّ ولـد عمـك رمّانـة تشـق لبحـور ولوطـان ودْيـرُو بُرْمـةَ الفـرْح، نطقـت الأم بفرحـة هـذاك ابنـي ابنـي في فرنسـا، حدثتهـا نفسـها يبـدو أن نبـوءة هـذا الشـيخ سـتتحقق، وهـي التـي لطالمـا انتظـرت زوار سـيدي لخـضر وهـم يحملـون أعلامهـم الملفوفـة عـلى أعمـدة بأقمشـة ملونـة أبيـض عـلى أصفـر، أخـضر عـلى أحمـر قـان، تهـرع للخـارج حـين تسـمع أصـوات المزمـار الـذي كان يصحبهـم، راكـم بوعدتكـم إذا جـاء ابنـي هـذا العـام، ببركـت سـيدي لخـضر راه جـاي، غالبـا مـا يفاجئهـا سي الحـواس متلبسـة بإحضـار كيـس مـن الدقيـق أو بعضـا مـن النقـود ترتبـك تدخـل المنـزل مسرعـة يتبعهـا غضبـان، راه مـا يعلـم الغيـب غـير اللـه واشـبيك يـا امـرى صـلي عـلى النبـي واذكـري ربـك راكي تـشركي باللـه، تبـكي وهـي تـردد نعـل بـو فرانسـا في الحـرب قتلـت اولادنـا، رجالنـا، حرمتنـا نعمـة الحـب جوعتنـا خوفتنـا سرقـت مـن عنينـا النـوم، وذرك حَبْسُـو ارواحهـم في بلادهـا بَرْضَايتْهـم اللـه لا يَتْربّحْهَـا، تشـكو حرمانـا عاناه كل فـرد مـن أفـراد الشـعب الجزائـري بأسـلوب بسـيط هـي تحلـل الطبيعـة البشريـة، حقـا الإنسـان إذا حـرم الأكل مـات وإذا حـرم النـوم جـن وإذا حـرم الحـب عـاش جثـة هامـدة، هـي محللـة نفسـانية بالفطـرة، قـال الشـيخ بلهجـة الغاضـب لم أكلمـك، أنـا نتكلـم مـع هذيـك المغبونـة وأشـار إليهـا بيـده أن تصمـت، تراجعـت وهـي

ترتعد، أكمل بنتي إيّاك من لَمْرَى المَصْفارَة مرْبوعَة القَدْ أنت نيّة أنت، نيّة يابنتي، وانصرف بعد أيام أفصح الابن لعمي، عن نيته للحضور للجزائر، جاء لخطبة ابنة أخيه لابنه، حضرت زوجته هي الأخرى، عارض عمي بشدة، لأنه يعرف زوجة ابنه، امرأة ماكرة لعوب، عجنت بسم الأفعى، يشوبها ألف لون ولون في الثانية الواحدة، تبدي الطيبة الكاذبة، بحيث تخفي وراءها قناع الشر والحقد للعائلة فقد عانى الأمرين حين زارهم في فرنسا، وحفيدته تربت على الحياء والاحترام، طيبة بريئة شأنها شأن أهلها، طلب عمي أن أقنعها بعدم القبول، تطوعت لأقوم بهذه المهمة، اقترحت عليها أن تتزوج الشاب الذي بعث لخطبتها مع إحدى صديقاتها.

صرخت في وجهي، لن أبقى في هذه البلاد المقفرة، أريد أن أعبر البحر، حيث أستنشق الحرية وأنعم بالأمان، سئمت من وطن يأكل أبناءه في نشوة العناق، ثم يلفظهم جثث هامدة، سئمت من الفوضى الفوضوية، سئمت من مدير المشغل الدكتاتور، الذي يعاملنا كالأنعام لن أبقى في وطن تطرد فيه عاملة يوم عيدها المزعوم، عيد المرأة، جاءت متأخرة بخمسة دقائق صرخ في وجهها بكل بذاءات اللغة العربية والفرنسية وختمها بأخرجي عليا يا كلبة ومن يومها لم تعد، سمعنا أن أباها زوّجها بإحدى القرى المجاورة، لا أحد يملك الشجاعة كي يقف في وجه هذا الطاغية وزميلي سعيد الذي جن من حالته المزرية، لديه أربعة أطفال وجد نفسه عاجزا عن إعالتهم، غادر المعمل وبقي يهيم في الشوارع لا أحد يدري عن مأساته شيء، وصحرى التي جنت هي الأخرى من الوضع المزري في بيتهم والضغط الذي يُمارس عليها فقر حقرة إخوة بعاهات مزمنة، وهي الوحيدة التي تعول عائلتها بهذا الشّهريّة انتاع الهم، الشابة المحرومة من كل شيء حتى الحلم تقول أنه ليس من حقها، تعيش في وسط ملغم بالهموم، حتى أنا في يوم نسيت الزمن وأصبت بعمى

البصر، جلت بناظري بالمشغل لم أر أحدا وهو يعج بالعاملات، لكنه بدا لي فارغا إلا مني، ظننت أن وقت المغادرة حان وأنني وحدي بالمشغل خرجت من الطابور، الكل كان يظن أنني ذهبت لبعض حاجة، ذهبت للبيت تناولت وجبة الغداء، ثم عرّجتُ على صديقتي نعيمة، طرقت الباب خرجت أمها، قلت لها ناديلي نعيمة، بادرت أمها في دهشة يابنتي نعيمة ما جاتش، نظرت إليها في استغراب، قالت راهي العشرة مزال الحال، حينها تملكني الرعب غادرت مسرعة عائدة للمعمل، والكل ينظر إلي في استغراب وحذر، جاءتني خالتي فزعة سارة وشبيك واش صرالك، ماعرفتش واش صرى، يبدو أنني جننت للحظات وعدت لرشدي لحسن حظي، وزميلتنا الأم التي طلبت منه أن يمنحها نصف ساعة لترضع ابنتها التي لا تتجاوز أربعة أشهر، ابتسم في استهزاء، إذا تحبي بنتك أقعدي معاها فالبيت، وحين فاض الحليب وآلمها ثديها، انتبذت مكانا خفيا أخرجت ثديها وهي تبكي أفرغت حليبه في المرحاض، تبا لزمن وأرض يسكب فيه حليب الرضع بأبخس مكان.

رجل متعجرف يزمجر في وجوههن، اللي تدنّى ليّا نرْحيها، لا نقابة تحميهن، ولا يتجرّأ أحد للتصدي له، مشغل لقيط، هو الآمر والناهي، فوضى المؤسسات كأنهن في القرون الوسطى، مشغل الخياطة الذي تشتغل فيه، مع صديقاتها من الثامنة حتى الخامسة، ثم يعدن مساءً محملات بأكياس كبيرة، يجرونها من ثقلها يكملن العمل في البيت مقابل مبلغ زهيد، يسرق مجهودهن المادي والمعنوي، يأخذ عملهن للعرض في بعض المناسبات يستفرد بالسمعة والمكسب لنفسه، اختار من بينهن فتاة جميلة متعجرفة تتفاخر عليهن بالامتيازات التي كانت يخصها بها.

تاكل لمحمر اجي يوم تاكل لمجمر مسكينة مهفوفة.

قالت: إحداهن

ذاع صيتها في كل المدينة، قضى على سمعتها، أصبحت يشار لها بالبنان، وموضع سخرية من زميلاتها.

أطرقتُ واجمة، ولم أجد بدّ إلا الصمت، عدت لعمي وقد خيم علي السكون، فهم من ملامحي أنني لم أفلح في تغيير قرارها، بادر، إيه يا بنتي هذا حقها، وأردف من يذهب لبلاد الكفار، صعب أن يحافظ على دينه، إن لم يجاريهم لفظوه، كما تلفظ التمرة النواة ، قلت إنها مصرة .

إيه الله يرحم أيام كنا نزوجهم فالسوق، على كل حال، اللهم اشهد فإني قد بلغت، وأردف « الطايرة من فَرْقها موكولة، الطايرة من فرْقها موكولة » ردّ دَها مرات كمن يهذي، فراسة الشيوخ، الذين خبروا الدنيا وأغوار النفوس .

تمت مراسيم الزواج، قاطعه عمي، غادر عبد الحفيظ وزوجته بقيت الفتاة تنتظر أن تكمل الأوراق الخاصة بالسفر، لتلتحق بزوجها، بعد شهور جاء الحلم ـ الفيزا ـ

أشار عمي علي أن أرافقها أنا وأخوها، مع الفجر قمنا والبنت لا تسعها الفرحة، أما أنا كنت أحس بأسى كبير لما يحدث، رافقنا صديق ابن أختي التقينا عند مرفأ الحافلات، وبينما نحن ننتظر قدوم الحافلة تراءى لنا كهلا على الرصيف الآخر، ينصب طاولة لبيع الكبريت والتبغ.

قال ابن أختي هل عرفته لم أتبينه بوضوح قلت لا من يكون؟ قال: إنه عمار حارس المستشفى الذي تشتغلين فيه، عرفته مسكين يعمل طوال النهار ثم ينهض مبكرا مرة لقمة العيش في بلادنا، وأكملت لديه سبعة من الأولاد، بلهجة التهكم قال: ابن أختي ومن قال له أن ينجب سبعة أولاد، رد عليه صديقه راك اتشوف، من الذي دعاه ليتكبد هذه المشقة، وقفت الحافلة عند أقدامنا امتطيناها وكلما وصلنا مكانا مرتفعا، جبل، ربوة، لفنا الخوف، المناظر

الطبيعية الخلابة لم ننعم بها كالعادة بسبب ما نسمعه من قصص الكمائن المرتقبة وما تخبئه الغابة من ذعر، وحين وصلنا ضواحي بومرداس انسل الظلام من بين جنبات الفضاء، وأسدل الضوء ستاره على البطاح، لمحنا شيخا كان واقفا على حافة الطريق أشار كمن يحمل سكينا، وضع يده على ذقنه، ينذرنا بأننا سنذبح، اشمأز الركاب من هذا الفأل المشؤوم .

قال: أحدهم يا له من غراب الشؤم أعوذ بالله صار الذبح فعل مألوف حتى أصبح يتخذ لغة، إماءً، وإيحاءً .

حين تختل الأفكار تصبح الأفعال مغولية وروح الإنسان تصبح أهون من ذبابة

وصلنا للجزائر العاصمة بأمان ولم تتحقق نبوءة الشيخ، حمد الكل الله

أخذنا نتبع أنا وابنة أختي أخوها وصديقه عرجنا لأحد الفنادق، بادر الشاب، نريد غرفتين رد عليه الرجل ليس لدي غرف، ورمقنا بنظرة ريبة اغتاظت نفسي لأنه وضعنا موضع شبهة، قلت في نفسي يا إلهي مجتمع مريض سوء الظن لا يفارق ذهنه أبدا .

ذهبنا لفندق آخر قديم متواضع قضينا الليل وكأننا في سوق، شباب يتحاورون كأنهم يتعاركون، في كل المواضيع، السياسة، الدين، الهوية ، نادى أحد آخر، واش الشاوي، رد عليه لباس آ لقبايلي، يبدو أن الاستعمار مازال يتغذى على بلاهتنا بخطة فرق تسد.

أطلت على الرجل قلت: له يا أخي نحن مرهقين نريد القليل من الهدوء، بادر إذا أردت الهدوء نامي في بيتك، قال آخر نساء في الفندق! نظر إلي في ازدراء، غلقت الباب وأنا أحتسب الله.

الساعة الرابعة فجرا نهضنا قاصدين القنصلية الفرنسية، المدينة مضيئة ليلها كنهارها، وحين وصلنا وجدنا جمعا غفيرا من الخلق، أغلبهم من الشباب طابور بطول الرصيف، ينتظرون متى يلجون لقصعة اللئام.

الثانية عشرة دخلت ابنة أختي، هاهي فرحة مستبشرة والفيزا بيدها، هممنا بالانصراف، وإذا بشاب يصرخ، والله لن أذل نفسي لهؤلاء الأنذال، حتى وإن كان علمهم يوصلني للقمر، يبدو أنه طالب، مزق الملف وانصرف.

هذا شاب شهم لديه نخوة الأجداد لو كل الشباب مثله لما حدث لنا ما حدث، تذكرت عمي محمد هذا الشبل من ذاك الأسد.

قال توفيق وقد فاز بالفيزا هو الآخر، فوّت على نفسه فرصة العلم والمتعة قلت : بالعكس اشترى نفسه وعزته سيجعل له الله مخرجا، ردّ وأي مخرج؟ في هذه الظروف التي تمر بها البلاد.

أخذتنا خطواتنا إلى حيث مقام الشهيد كان شامخا في كبرياء، نطق توفيق هكذا يهدرون أموال الشعب في التفاخر والناس تتخبط في أوحال الفقر، الفوخ والزوخ ولعشى قرنينة، رد عليه ابن أختي لو كان يهمهم أمرنا لما فكر أحد في مغادرة البلاد، تدخلت لأنقذ هذا المعلم من تهمة لئيمة، على الأقل احترموه إكراما للشهداء، قال توفيق يا أختي لو عاد الشهداء، لأقاموا مندبة حوله وذبحوا أنفسهم وطلوه بدمائهم، أحسست أنه سد أفق الحوار، قلت يا لهذا التشاؤم الذي يسكنكم؟ طفنا المدينة والرذاذ يغسل بداوتنا ويرشنا بعطر الحضارة اقتربنا من البحر، كان صامتا ساكنا حزينا، جميل هو حين يهدأ، حين يغضب حين يبتسم وحين يتكلم ببياضه بزرقته، تصمت كل اللغات تتيه القافية عن موضعها، يهجر النثر الأوراق يعجز الحكماء عن فهم عبره، تستكين الجبابرة أمام عظمته، تتمنى كل المخلوقات أن تكون هناك في خضم حوضه، تهوى الأنفس عناده، موجاته المجنونة الجائعة، ينتصر عليه البعض وتسلب جنياته أقدام البعض ليكونوا وجبة للحيتان، الذين لا يفهمون أن الغوص فيه يتطلب التمرن على كل أنواع فنون السباحة، تخرج أناته، حشرجاته، تحاكي أعماق الكيان الإنساني يرد للكاهل صباه وللعاقل سذاجته، متمرد أنت يا

بحر على المفاهيم البليدة ليس غريبا عنك أن تصتحب فيك الأضداد، أمامك تسقط كل القيم يصبح الأغراء سيد الموقف، في حضرتك تخور كل قواي، أبوح لك بكل تفاهات عمري التي مضت والتي ستأتي، حين تغضب تبيض تطفو سريرتك، وفي بياضك مزيج من قداسة النور وكبر الشيطان، أنت عين الزمان وزوجه، أنت الألفة، أنت الصخب، وماعساني أن أقول أنت سر الله في كونه.

باخرة طارق بن زياد فاتح الأندلس، جاثية هناك فوق الماء، آه لو يعود طارق والكاهنة، لخلصوا العالم من هذه الآفات، وأعادوا للبحر صفاءه طارق ناضل بشرف، عاد من غزواته مشرأب الرأس، عالي الهمة، بعد أن أشتم رائحة مغرضة، من بعض الأمراء العرب الذين يبدو أن شهامته أحرجتهم، سمعته وهو يخطب في المارين والكل كان منشغلا بهمه، يبدو أنه لم يسمعه غيري، أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو من أمامكم؟ وليس لكم والله إلا الصدق والصبر واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمرا، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم والجرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به مدينته الحصينة وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وأني لم أحرضكم أمرا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فما حظكم فيه أوفى من حظي خطبة توحي أن الرجل ذو همة عالية، الكاهنة التي واجهت الجيوش القادمة بالرسالة المحمدية بكل شجاعة، حرة من حرائر الأمازيغ، سرعان ما أدركت أن هذا الدين هو الحل،

لأبنائها وعشيرتها، وأنه المخلص للبشرية، دون تعصب جاءت بكسرة قسمتها نصفين ناولت ابنها نصف والنصف الآخر للجندي المسلم وقالت لهم أنتم الآن أخوة، وأية نخوة قيل أنها رمت بنفسها في البئر حتى لا تقع أسيرة في يد القائد العربي، آه لو يعود طارق وتعود الكاهنة لما تعبنا وما ضعنا في متاهة الرتابة والخنوع وما داهمتنا كل هذه المآسي وقفت بإجلاء أسامر البحر، إيه يا عظيم ما الذي هدأك؟ أهي آلام هذه الأمة أم أوجمك الخذلان، أنت جبار وفوقك يطفو جبار، أية بضائع تحمل باسمك يا طارق وأي المشاريع باسمك تدار، وأي ذرائع تدخل جوفك وأنت لا تدري وأي أناس يطأون كبرياءك مخلصين هم أم خونة، آه لو تعود.

بعد الزوال، ذهبنا للمحطة للعودة استقلينا سيارة امتطت تنسف نسفا، تشق الطريق كأنها تفر من قدر محتوم، الكل صامت، وبعد ساعات، وصلنا طريق تكتنفها جبال، حوالي العاشرة ليلا، وإذا بالسائق يقول يا لخاوة الظاهر ضيعنا الطريق، رد عليه أحد الركاب بتهكم، شاب من الخلف، لو تردنا للعاصمة خير، أضاف آخر، على بالك جبال شمرة مليانة إرهاب الله يستر، صمت الجميع وخيم علينا الذعر.

قال: كهل يميل للشيخوخة عمي الحاج، هو أحد جيراننا يا رب لا تكشف علينا حال، تحول كلّ منا لعابد في صومعة، السائق يحوقل، وآخر يستغفر، وأنا لذت بنفسي إلى الله، أردد «وجعلنا من بين أيديهم سدّا ومن خلفهم سدّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون .» صدق الله العظيم. وما هي إلا لحظات حتى تراءى لنا حاجزا للدرك الوطني، قال: قائد السيارة وصوته يختنق ما نعرف هما هما ولا هذوك لكلاب هما، دب الذعر فينا يستأصل أرواحنا من أجسادنا تمنيت في سري، لو أنني أصير هلامية ويبتلعني الظلام، كي لا ألتقي أولائك الوحوش، وسارة تدخل رأسها في صدري، ترتجف من شدة الخوف، يا الله لا

تجعلهم يلوثوننا الموت أهون أجهش براكين بداخلي، الاحتمالات تزهق حناياي تذكرت والدي كان دائما يردّدّ على مسمعي « النار ولا العار المنية ولا الدنية. « «من قتل على عرضه فهو مجاهد ومن مات دون عرضه فهو شهيد» مجنون الشرف هو، حاله حال كل الأوراسين، آه أبي كيف نقاتل ومن معي عزل وأنا وسارة لسنا إلا فراشتين وهم أشد ضراوة من الوحوش، استوقفونا كنت أتحاشى النظر إليهم إن نظرنا إليهم شكوا بنا، وإن طأطأنا شكوا بنا، يا ويلي ما هذا الموقف الذي لا نعرف كيف نتصرف في حضرته؟ تقدم الدركي

السلام عليكم

سحب الرخصة وبعض الأوراق من السائق

السائق يداه ترتجفان، العيون تحملق في اللاشيء

قال: الدركي يا خويا واش جابكم في هذه الساعة راه هذا المكان خطير، رد السائق وقد بدت عليه علامات الطمأنينة، ياخويا تحتمت، بربي ما نعاودهاش، أعاد له الوثائق وتمنى لنا طريق السلامة تنفسنا الصعداء، كل هذا العناء من أجل الفيزا، تبا لها من فيزا، تنهد عمي الحاج بزفرة كأنها خرجت من فوهة بركان، نطق شاب والله مراقت هاذ لبلاد، واش تسوى الدنيا بلا الأمان، الأمان، الحب، الأمل، معاني ضاق بها قاموسنا واستبدلت بالخوف، الكره، الإحباط ،التهور، الأمور خبط عشواء، يمسي أحدنا مؤمن بفكرة ويصبح يكفر بها ليعتنق أخرى، لا تعرف من الكافر ومن المؤمن ومن الوطني ومن الخائن، عشش الهم في كل أرجاء الوطن، اختلط الأمر على الناس حتى خنق الجنون أعناقهم، العدو خائن الدار.

العودة

نهضت من فراشي متعبة من الرحلة الحلم، السواد يلف كل جوارحي ارتشفت قهوتي على عجل، لم أهتم كثيرا بالطقوس الأنثوية فالظرف لا يسمح، حملت حقيبتي الملأى بالخيبات، اتجهت نحو عملي التقيت بعمي سليمان، مستر نظافة، كما يلقبه أطفال الحي رجل في الستينات بلحية يغطيها الشيب سروال يربطه بعناية فوق سرته، دليل على الصرامة وعلو الهمة، يضع فوق رأسه شاشية بيضاء، مسالم متواضع، لديه سذاجة بريئة، ممزوجة بفلسفة عميقة في الحياة، مبكرا هاهو يكنس القاذورات، يلتقط قارورات الخمر وهو يستغفر الله.

صباح الخير عمي سليمان

صباح الخير كاهنة، يشير إلي وقارورة الخمر بيده يبادر يا بنتي الله يهدي ما اخلق، يسرد علي ما حدث ليلة البارحة، أقول له لقد سمعت كل شيء صراخهم أرق مضجعي، شباب عمرهم لا يتعدى العشرين، يقضون ليلتهم سكارى، بجرار الدمار يبحرون في عوالم مجدبة، صياح، شجار، حتى الفجر ومن بينهم، حسام ابن الجارة الزهرة، امرأة شابة تزوجت من رجل معتوه يكبرها بعشرين سنة، كانت مرغمة على الزواج منه لتهرب من فقرها لا يتقن فن المعاشرة ولا يقدس الحياة الزوجية، سب وشتم كلام بذيء يخدش الحياء، لأتفه الأسباب، يفتقر للأحاسيس النبيلة يمسك بحسام الغر من المؤخرة ويرشقه بشتى الشتائم المروعة أمام مرأى الجميع، يرد عليه وقد احمرت وجنتاه، احشم آبابا الله يهديك يبدو أنه ضاق ذرعا بهذه المعاملة فلاذ للشراب الروحي لينعم بقليل من لحظات الحلم والأمان ويهرب من

منظـر أمـه الغضـوب المقطبـة الجبـين عـلى الـدوام وتأسـفها الـذي يتكـرر عـلى لسـانها {زَهْـر النّسـا فالسّـما وانـا زهـري فالحمـى } واش اعملـت حتـى نتبـلى بهـذا البوهـالي، هـذا مـا أمـلاه عليـه عقلـه الصغـير. أرد : آمـين ، أمـضي لحـال سـبيلي أتركـه يتعبّـد في محـراب الطبيعـة

زمـن القحـط، زمـن الصخـب، زمـن الخـواء الروحـي، زمـن الجشـع الغريـزي، زمـن اللاحـب .

في الطريـق التقيـت بـزوج أختـي كان مـع صديقـه في السـيارة نـداني كاهنـة اركبـي انوصلـوك ، ركبـت لأني كنـت منهكـة وكنـت في حاجـة لهـذه التوصيلـة.

رجـل متـزوج مـن ثـلاث نسـاء قصـير القامـة بوجـه داكـن وبطـن منتفخـة للأمـام، ينتقـم لمظهـره بتعـدد الزوجـات، يفجـر مكبوتاتـه الذكوريـة يتفاخـر بريشـه المزيف القـذر يتاجـر في كل شيء، يمتلـك فندقـا للدعـارة، فللدنـاءة رجالهـا وللنجاسـة نسـاؤها.

هـا هـي مقبلـة في أبهـى حلـة، عـذراء، جميلـة، شـقراء، تبـدو مـن بعيـد كأنهـا عـروس ليلـة زفافهـا

آآآآآآه لوكان اللي إكمل الرابعة، وخلي تخلَ

قالها: بحرقة فظيعة يا لها من وقاحة

رد عليه زوج أختي كان بجانبه

يارجـل انعـل الشـيطان، راهـي بنتـك، لم يتبينهـا جيـدا صفعتـه الصدمـة، حـين تأكـد أنهـا ابنتـه، طعـن في أبوتـه أنقـى العلاقـات وأقدسـها وأبعدهـا عـن الأحاسـيس المريضـة، رفـع يديـه عـن مكبـح السـيارة، كادت أن تصطـدم بسـيارة في المقابـل، لـولا تدخـل زوج أختـي تمكـن مـن اسـتعادة السـيارة لمسـارها، ضرب رأسـه خبأهـا بـين جنبيـه حيـاء مـن نفسـه، أحسسـت بالغثيـان يعتـلي صـدري، أردت أن أتقيـأ أمعـائي وقلبـي وكل مـا في.

أقترب من باب المشفى حالة استنفار قصوى، ولجت باب الاستعجالات، وجدت جمعا غفيرا من الممرضين والأطباء يهرعون، بكاء ولطم خدود، نساء رجالا مذعورين، اتجهت للمخبر، ارتديت مئزري، صادفت زميلي مسعود.

ماذا حصل ؟

لم تسمعِ ماذا حدث بالأمس ؟

ماذا؟ أنا كنت مسافرة

لقد عثر راعي في القرية المجاورة للجبل على فتاة ميتة، نورة في ريعان شبابها مقبلة على الحياة، الابتسامة لا تفارق محياها، الوجه القمري يضيء وسط ظلام حالك، الشعر الأسود ينسدل على كتفيها شلال ينحدر من أعلى الربوة، ماسكة بدلو تلهو به بيدها تمشي نشوانة بالنسيم العليل والطبيعة الأخاذة المحيطة بها لتجلب الماء من البئر، لا تدري أن قدرا أسودا ينتظرها، وأن أخوة يوسف يتربصون بها تعرض لها شابين جروها عنوة نحو مكان قريب من المغارة .

قال : أحدهم لم أنت سافرة أيتها الفاسقة؟.

وما دخلك أنت هل أنت أحد أقاربي؟

قال : آخر، أقتلها وخلصنا من لسانها، رد عليه بإشارة من يده أنتظر دفعها لداخل المغارة

قولي : زوجتك نفسي وسأجعلك أميرة، تنجبين لي أبناء نجعلهم في سبيل الله نقاتل بهم الطواغيت

قالت إليك عني أيها الوغد، ما هذه التفاهات؟ من أي النواميس أتيت بها ابتعد عني يا غبي.

قوليها هيا قوليها كي تصيري زوجتي أنا لا أريد أن أتعدى حدود الله، قالت ماذا تعرف عن حدود الله أيها الغول أنتم أحفاد إبليس عليكم اللّعنة،

ضربها ضربة ارتطمت بالصخرة وهنا فاجأهم راعي صرخ فيهم ابتعدوا عنها أيها الأوغاد، صوب بندقيته إليهم تمكنوا من الفرار اقترب منها وجدها مضرّجة بدمها حمامة اغتالها صقر.

هرع إلى مركز الدرك الوطني لأنه خاف أن يسعفها تطاله التّهمة في هذه الآونة الكل يخاف حتى من ظله، عاد مع الدرك وجدوا الفتاة قد فارقت الحياة، كتبت على الصخرة أنا نورة مت عفيفة ولم يتمكن مني غول الجبل، صدقت نورة تغول الإنسان حتى أصبح لا يفرق بين الحلال والحرام، لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم،

-شوقي-

سمعت صوت الشهداء وهم يرددون:

حماة الحمى ياحماة الحمى ... هلموا هلموا لمجد الزمن

لقد صرخت في عروقنا الدما ... نموت نموت ويحيا الوطن

-مصطفى صادق الرافعي-

لو عادوا لحملوا السلاح مرة أخرى ليحاربوا غول الجبل وطهروا الأرض من الظلاميين الجهلة .

الغريب القريب

قضى عمره بالمنفى يصارع ذكرياته وحنينه لامرأة أحبّها في جنون، وطفل رضيع مات بعدما ألف ضحكته الجميلة، من الديار المقدسة لحلب، التي يقال أن الرسول {ص} قال عنها « إن بلاد الشام من أعظم خيرة الله في أرضه « طاف العالم العربي من أقصاه لأقصاه.

إنها الأقدار تعصف به عاد شيخا وقساوة الأيام تلاحقه أينما حل لا بيت يؤويه ولا دفء العائلة يحميه من رتابة السعات الباهتة، الشيخ إبراهيم، دخل علي في المخبر فارع الطول جميل التقاسيم بأثواب بالية الوصفة الطبية بيده مبلل الوجه حبات المطر ترقص على جبينه وخديه، ابتسامة تعلو وجهه المصفر ناولني إياها، عرفت الاسم اندهشت، إنه الرجل الذي سمعت قصته من العائلة، وزوجته التي كنت ألتقيها في المناسبات العائلية.

قلت: في غرابة وفرحة، عمي إبراهيم قال هل تعرفيني؟

قلت: نعم أنت من أقاربي، سويت أموره أخذته للطبيب أدخله لقسم الطب الباطني الرجالي، في كل يوم مداومتي أزوره نمت في قلبي بذرة الحنين لهذا القادم الغريب القريب، القادم من غائر الأيام الذي جردته الحياة أحبائه وحتى انتمائه علاقة صداقة جمعتني به، نتسامر، نتجاذب أطراف الحديث يمطرني بوابل من النصائح والحكم مكتبة تهيم على وجه البسيطة لا تعرف لها وجهة .

قال لي يوما يا بنيتي احذري خداع الرجل «كَحَلْ الرّاس أكْوِيه لا الدّاويه «

وأردف تبديـن رصينـة وعاقلـة لكـن نـاس زمـان قالـوا «حـوّس عـلى كل هزْبـة تلقـى وُراهـا عاقـل» .

جلجلـتُ بضحكـة قلـت لـه، إيـه لأن العاقـل يصـبر ويصابـر يقـف في طابـور الحيـاة والنـاس تأخـذ حقهـا الواحـد تلـو الآخـر وهـو ينتظـر وينتظـر وحـين يتعطـل ويطـول دوره حينهـا يسـتعجل فيخطـئ الهـدف ويرتكـب حماقـة، ضحـك حتـى بانـت نواجـده قـال ربمـا ربمـا، أنـت ذكيـة تحلّـِين الأمـور ببراعـة اللـه يحميـك يـا بنيتـي، نهضـت، قبّلـت رأسـه ودعتـه عـلى أن أزوره في اليـوم القـادم، أنسـتني هـذه الصبيحـة الكارثـة التـي حدثـت في القريـة قصـة نـورة اسـتولت عـلى كل كيـاني، نويـت في نفـسي أن أزوره في المسـاء، جـاء وقـت الغـداء ذهبـت للمطعـم بينـما أنـا واقفـة والحـزن لا يفـارق وجـداني يفتـت أحشـائي، وأنـا أنتظـر دوري سـمعت صوتـا كالصاعقـة ينبطـح طـآآب، اهتـز قلبـي مـن مكانـه، ارتعشـت فرائـسي كأم ينبؤهـا إحساسـها أن مكروهـا ألم بابنهـا، أخـذت الوجبـة الشـؤم واتجهـت للمخبر، وإذا بصديقتـي تـصرخ في وجهـي، انتحـر انتحـر، رمـى نفسـه مـن الطابـق الرابـع، لم أسـتفسر عـن اسـمه، صعـد لـرأسي دوار، وعـلى الفـور حدّثنـي قلبـي أنـه هـو، أجـل هـو الصـوت الـذي سـمعته، كان عمـي إبراهيـم .

رميـت بالصينيـة عـلى الأرض، ارتميـت عـلى صديقتـي أبـكي بأعـلى صـوت كأم ثـكلى، احتضنتنـي وهـي الأخـرى تبـكي وتقـول اليـوم لم تزوريـه، اليـوم لم تزوريـه، هـذه الكلـمات بمثابـة خنجـر يقطـع أحشـائي، أضافـت إنـه انتحـر، لأن الطبيـب أخـبره أنـه معـافى ولابـد أن يغـادر المشـفى، أخـبره أنـه ليـس لـه مـكان يذهـب إليـه توسـل لـه أن يدعـه بعـض أيـام حتـى يتحسـن الجـو، لكـن الطبيـب بـادر هـذه مستشـفى وليسـت دار للعجـزة.

دفعـت بـاب غرفـة العنايـة المركـزة ببـطء دخلـت وحزنـا عميقـا يعتـصرني والهلـع يمـلأ كيـاني كأن الطـير تـأكل مـن فـوق رأسي وجدتـه محاطـا بالأطبـاء والممرضـين،

استداروا رؤوسهم إلي دون أن يقولوا شيئا، تأملته من بعيد آثار الجروح على وجهه وهو يحتضر ألقيت عليه النظرة الأخيرة وانصرفت في صمت، المكان تؤمه الرهبة، قضيت الليلة أغازل النوم والنوم يجافني أرتطم كأمواج البحر، لا أهدأ على وضعية واحدة والدموع لا تفارق عيني أ كثر من شهور وأنا أبكي هذا الغريب القابع في أعماقي، قالت أختي هل ستبكين هذا الرجل دهرا؟ بادر والدي يهدأ من روعي يا بنيتي هذا قدر ولا مفر من القدر لقد أشرت عليه أن يسكن البيت الذي ننجزه فأبى قلت في نفسي منعته عزته عمي إبراهيم وأنا أعرفه، هاهما رجلان يجراني من أثوابي ألبسوني ثوبا أبيضا وضعوني في حفرة نمت، همت في سبات عميق، التقيت بأشباح يلفهم البياض، سافرت في زمن البرزخ سرحت في ملكوت الهيام أين ألتقي بالروح الأخت، من بين الجمع يظهر عمي إبراهيم هرعت إليه احتضنته بحرقة، كان وجهه يضيء كالقمر ليلة اكتماله، أدخل يده البيضاء من غير سوء في قلة نورانية ناولني حبات على شكل كريات صغيرة ناصعة كالبَرَدْ، أدخلها في فمي كان طعمها لذيذا جدا، قلت في نفسي يبدو هذا هو طعام أهل الجنة، قبلني على الجبين، نطق كلمات نورانية انطلقي أيتها اليمامة في حقول العمر مدي إليك بجذع النخل تساقط عليك رطب الأمل، انطلقي، انطلقي، ثم اختفى هو ورفاقه، فتحت عيناي لأجد نفسي على فراش أخضر، أنظر يمنة ويسارا وحيدة في الغرفة أنا والجدران والسقف ولظى الشوق يحرقني وطعم الحبات مزال في فمي ابتلعت ريقي تحسست شفتي

نجمة

هاهي نجمة تتراءى لي من بعيد، فرس جموح، يحاكي طولها شجر السرو الفارع للسماء ومعطفها الأسود يضفي عليها بهاء، يحيطها بهالة ضوئية كأنها قديسة.

هل تأتي معنا لبلدية شليا لحضور تكريم التلاميذ، سعدت بدعوتها لطالما تمنيت أن أرى هذا المعلم التاريخي الرباني، شليا امرأة فاتنة تلبس ثوبا أبيضا كل شتاء ووشاحا أخضر كلما زارها الربيع والصيف، ساحرة هي، حين تلج إليها تحس كأنك في ملكوت سرمدي وأنت تجول بنظرك يتراءى لك جبل شليا بارتفاعه الشاهق الذي يبلغ 2328م وهو أعلى قمة بجبال الأوراس وثاني قمة بالجزائر ويزخر بغطاء نباتي متنوع ومن أشجاره الأرز الأطلسي والصنوبر، التنوب، السدر والبلوط ويتمتع بثروة حيوانية هائلة كان إبان الثورة الحضن الحامي للمجاهدين الذين كانوا أسودا تزأر في وجه العدو ناضلوا من أجل الوطن وصاغوا أروع الملاحم ألهمت الشعراء واستهوت حناجر النساء، تصدح بها في الأعراس الأوراسية ومن بينها أغنية عشي عمار كلما سمعتها ارتعدت فرائسي، كان بمثابة الشعلة التي أنارت الجبل وانطلقت لتعم كل الأوراس، غابات بني ملول معظم سكانها يمارس الفلاحة ولها مورد اقتصادي هام، تفاحها لا يضاهيها تفاح وديان المنطقة تترامى، ماؤها كأنما انفلتت من مياه الجنة، أنشدتها مازحة :

شليا وائدة أحلامي
أقسمت أن أزهر فيك
وأقسمت أن أموت شنقا
بغصن أخضر
وأكفن بثلج أبيض
بإحدى الأمسيات الحالمة
شُهِدَ موكبي
شيّعْتني لمنفاي الأبدي
فكنتُ شهيدة وجدك
بإحدى الأمسيات الغارقة
في الصمت
انبعثت برعما مزهرا
علّني بأعلى القمة أَخْصُبْ
همستُ لكِ شِلْيَا
أيعقل أن تقتلي
من سقاك أروع ما يُسقى
تجّبرتِ وبالأكُف رميتي بي
وأقسمت إن لم أنزع شرْنقة الوجْد
أن أموت جلدا وأُقْبر
تنازلتُ عن الشّرنقة
والتحفت ملاءة سوداء
أطربت الوهاد، الغدران
لحنا شاويا
يؤديه ناي الفؤاد
لأن الغصن أقرّ وقدّر
وأقسمتِ أن تغرزي الغصن أكثر
فمت وانتصرتِ وكان انتصارِكِ أكبر

ابتسمت، وهي تضع ذراعها تحت إبطي، وأخيرا ستلتقين بقاتلتك شليا، ثم تمسك رأسي بيدها الأخرى، أيتها اللعينة أمن رأسك الصغير تأتين بهذه التعابير الآسرة، أنت ساحرة.

نهضت مبكرا مبتهجة للقاء البراعم، المنفلتة من السواد ماسكة ضوءا أخضرا، أشهد فجر الزهور المنفتحة بيضاء الأمل، حاملة بيوم مزاجه هادئ ونسائم تنعشني، أسعد ولو لحظات بهدوء الريف وطيبة عطره.

صباح الخير

صباح النور

المسافة بين مدينتنا وشليا تكتنفها أشجار البلوط والسرو، والقطران والأرز شاهدة على عراقة أهلها تمتد أعناقها لعنان السماء في كبرياء، سلسلة جبلية تكتسي قممها حلة بيضاء، تشهد على تقواها وعلى نقاء أهلها الطيبين، هذه الأرض المعطاءة التي الآن تعج بسحب البغضاء، الصخور منتشرة هنا وهناك ربما هوت يوما في لحظة خشوع وخشية، سنابل ترنوا لبارئها، وأخرى تنحني في حياء، وفتاة على حافة الطريق، بنية لا تتعدى عمر النضج ترعى قطيع الغنم، ترعاها ويرعاها البؤس يتغذى منها كما يتغذى النحل من شهد الزهور، تتناغم مع الطبيعة تحكيها وتحاكيها، ماسكة بغصن شجرة تهش به على غنمها تارة، وتارة تضرب به أديم الأرض، تبحث عن اليقين، تتأمل الأفق، تستعيد ذكريات أولائك الذين أكلوا الجمر واحتسوا أتون الجحيم .

خرج الأطفال، كأنهم انفلقوا من قرص الشمس، أو من ضياء القمر، بوجوه جميلة بريئة، مصبحين يقطعون مسافة بعض الكيلومترات، يسلكون الوديان المنحدرات، فرحين بمحافظهم وكلهم أملا في غد مشرق، والجبال تحتضن القرية كأنها الأم الرّؤوم، وهم يطلبون المدرسة بينما هم مارين بإحدى الدور، رأوا أشباحا تهوي من فوق ربوة، اختبأوا مخافة أن يلحقهم أذاهم، لأنهم عرفوا أنهم من اللقب

الغريب، الذي ولج قاموسنا الجديد الإرهاب نادى أحدهم آ عيسى ، آ عيسى.
عيسى الشاب الطيب الذي عانى في حياته اليتم، كان أبوه هاربا من جنود المستعمر وبحوزته وثائق مهمة، فلم يجد مخرجا إلا أن يرمي نفسه في بئر، مات وهو يحمل سره معه، مات من أجل أن يحيى الآخرون، هكذا كان الإنسان الجزائري الأصيل، زوجته امرأة متصلة لم تحبه ولم تحترمه يوما، فقد زفت إليه عنوة بحكم التقاليد، كانت تفضل عليه جارهم سامي بن الحاج العلواني، رجل متعجرف ثري ، متعالٍ يمشي بخطى ثابتة الرأس تمتد لأعلى، بذلة فخمة، عصى مزخرفة بيده، عنجهية مفرطة، وكأنه ليس غيره فوق الأرض، استولى على الأراضي وبعض الأملاك في بداية الاستقلال حيث كانت الطيبة تسكن قلوب الناس والفرح بالاستقلال أخذ عقولهم لا يلتفتون لمتاع الحياة، يقال أن لديه ثلاث زوجات، وزوجته الصغرى من مواليد تسعة وخمسون، وهي أيضا تحصل على منحة مجاهدة، وهذه نكتة أهل القرية يقولون باهية جاهدت في بطن أمها، يا لجشع البشر!.
تمنت أن تعيش في بجانبه كي تنعم بثروته وبالجاه الذي يُوَقّره، وهو المعلم المسالم الذي لا يغريه بهرج الحياة فقط يحلم أن يصير معلما يعلم أبناء قريته ويعين أمه وأخوته على مواجهة الظروف القاسية
خرج عيسى من بيته التفوا حوله كالخِطْ[1] من كل جانب حتى لا يكاد يظهر، هاهم يتحاورون والحديث في أخذ ورد بينهم وعيسى يتذمر يرفع يده يشير إليهم بالانصراف، لعلهم يتحايلون عليه للانضمام إليهم، لكنه يرفض لأنه لا يؤمن بأفكارهم، وحين يئسوا منه أخرج أحدهم خنجرا وصوبه نحو بطنه، الفخر عيسى صعقا مضرجا بدمه.
هرع الأطفال خارجين من مخبئهم خالتي زكية خالتي زكية، خرجت أمه خالتي زكية وقد هالها منظر ابنها، تندب وتنوح خرج أهل البيت وأهل

(1) الخِطْ = أخطوبط

الـدوار اجتمعـوا والـصراخ يعلـو المـكان، وأهـل الريـف تتحكـم فيهـم الفطـرة الإنسـانية التـي جبلـت عـلى وتـيرة الجماعـة والتـآزر، منهـم مـن رمـى بفأسـه ومـن تـرك ماشـيته مـن غـادر حانوتـه وفـزع إلى مـكان الحـادث ومنهـم مـن جـاء لـيروي عطـش فضولـه والـكل فاغـرا فـاه مـن هـول المنظـر بينـما هـم قفـزوا قفـزة غريبـة عجيبـة، كأنهـم الشـياطين، تدربـوا عـلى كل فنـون القتـال، ولم يتركـوا وراءهـم إلا الفجائـع .

قـال: أحـد الأطفـال خالتـي زكيـة لقـد عرفتهـم، عـمار ولـد عمـي الصحـراوي ومجيد ولـد خالتـي فطومـة، سـامي ولـد الحـاج العلـواني . صرخـت يَـا وَخْـذي عـلَى وَلْـدي اثْفَـرّق دَمُّ عَلْعْـرَاشْ مَـنْ مَـنْ نـدّي ثَـارُو واشْـكونْ إِوَفِّي الدّيّـة .

ممـن تَقْتصّـين أيتهـا الثـكلى؟ أمـن أهلـك وعشـيرتك؟ أم مـن مدينـة عقـوا أبناءهـا مـن إسرافهـا في قهرهـم بعـادات باليـة، لا تتفـق وطموحاتهـم، أم مـن اللامسـاواة التـي ذبحـت أحلامهـم، أم مـن مشـايخ التكفـير يلقنونهـم أن القتـل جهـاد، والسرقـة جزيـة، والزنـا زواج متعـة، عدنـا لنقطـة الصفـر، الهمجيـة، التلفيـق والتصفيـق، الواحـة غابـة سـكانها وحـوش ضاريـة.

مـات عيـسى، ومـن دمـه انبثقـت كرمـة تشـهد إلى هـذا اليـوم عـلى نقائـه، فضّـل المـوت عـلى الانتـماء للوحـوش البريـة، أصبـح أهـل الـدوار يسـمونها كرمـة عيـسى .

واصل الأطفال طريقهم والرعب يلف كيانهم وهم يدندنون

آفاف ينوغا أفاف ينوغا .....افذك ثابورث آفاف ينوغا

أقـذغ الوحش الغابـــة..... أقذغ أولاذ نكيني آيلي غريبة

يـــــــــا أبي يا أبي..... إفتح البـــــاب يا أبـي

إني خائفة من وحش الغابة..... دعـــي أســاورك تــرج

أخشى من وحش الغابة يا أبي إنوفا..... آه يابنتي غريبا وأنا أيضا أخشاه

الأغنيـة الأسـطورة التـي يؤديهـا العمـلاق إديـر والتـي تصـف الأمازيـغ وكفـاح

المرأة الأمازيغية الحرة الشجاعة، التي تضحي من أجل أبيها العجوز، وإخوتها الصغار، تكد طوال اليوم في العمل بجني الزيتون، لتسد رمق أسرتها تعود البنت للبيت متأخرة بعد غروب الشمس والخوف يطوق قلبها وروحها من أن يلتقطها الغول، في الحقيقة إن الغول عاد من جديد وعدنا لقهقرة زمن الأغوال، الغول عاد في شكل آدمي وحين تغول البشر أصبح أكثر ضراوة من الغول، تحكي الأسطورة عن مخلوق مخيف، أو أنها كناية عن الإنسان الشرير، إن كان الغول كائنا حقيقيا أقرب للحيوان منه للإنسان على الأقل لا يملك عقلا كي يتفنن في تغوّله، أحيانا الفناء والدمار لا يأتي إلا من عقل حاذق شرير .

هاهي المدرسة الحلم، قد أحرقت عن آخرها لم يتبق منها إلا الجدران، سوداء، سواد عقول فاعليها المغوليين أعداء النور، كل شيء متناثر، الدفاتر، الكراسي، مدير المدرسة منبطح على الأرض المعلمين واحد مطعون وآخر مبتور اليدين، البراءة مشوهة من آثار الحرق، هبت نجمة كفرس جموح فك لجامها.

تخبط الأرض بكل أوصالها، تصرخ أعطوني سلاح أعطوني سلاح كي أقتص من هؤلاء الأنذال، حتى كادت تتقطع أوداجها، يا ولي يا ولي هبوا يا رجال، تتفقد أبناءها أصيبت بحالة هسترية، طارق، اسكندر، أسماء، خالد، مسينيسا، مريم، رقية، يا ولي تقبل الأشلاء امتزج دمهم والسواد بدموعها، هزتني قشعريرة، هرعت إليها أهدأ من روعها، تبا كيف أهدأ هذه لعنة، اللعنة أصابت الجزائر احتضنتها ودون وعي مني وجدت نفسي أنشد بأعلى صوتي والأسى يمزق أحشائي :

وطني وإن قتلوني ألف قتْلَة
وبعثروا على كل فَجٍّ أشْلائي
لَمْلمْتُها وجِئتك أسْعى
ويصلك قَبْلِي نِدَائِي

و إنْ قطّعوا جناحيَ
تمرّدتْ جِينَاتي
لِينْبَثق مِنّي ألفُ
جناحِ وجناحٍ
من آدم لِآخر الأباء
وأعلنتُ لك عشْقي وولَائي

صرخ شيخ أنا ذاهب للمنزل أحضر بندقيتي أكمل ما بقي من شيبتي في إثرهم، ولن أهدأ حتى أجدهم وأقتلهم شر قتلة، وهتف الجميع السلاح السلاح يا رجال، أخذ الجمع من الكهول والشباب في إثرهم يمشطون الجبل والحقد يملأ أنفسهم وطلب الثأر يستحوذ على عقولهم قال الشيخ المحموم من أثَرِ الصّدمة والبندقية فوق ظهره وهو يلهث من التعب البادي على محياه، آه يا زمن إن آثار لكروس الذي في كتفي مازال يؤلمني والرصاصة التي سكنت يميني لم ينم وجعها بعد، بغتة، سكن في زاوية ما وانتصب كصخرة ينبش في المكان بنظراته وتحجر الدمع في مقلتيه والكل ينظر إليه في حيرة في ذاك المكان عاودته الذكرى، إلى خديعته الأخيرة من أيام كفاحه ذات خريف من عام ألف وتسعمائة وواحد وستون إذ كان في مهمة كلفها بها قائده، بأخذ المال الذي كانوا يوزعونه على أرامل الشهداء والمجاهدين ليَعولُوا أبناءهم ويسدّوا رمق جوعهم ويخفّفوا عنهم وحشة غياب أبائهم، صالح الرجل الذي حباه الله بجمال رباني فتنة تمشي في الأدغال والجبال وما إن تطأ أقدامه بيت ويسلم الأمانة حتى تقع الواحدة من الأرامل أو العذارى في غرامه، فيلوذ المسكين مهرولا هاربا منهن من نفسه، ومن قدره الذي جعل حسنه وبالاً عليه كان كالملاك في خَلْقه وخُلقِه وهو يردد

[إلّا تصرف عني كيدهن أصبُّ إليهن وأكن من الجاهلين].صدق الله العظيم

بلـغ ذلـك قائـده وأصحابـه فاسـتيقظت غـيرة قابيـل في قلوبهـم ورانت عـلى العقول وحجبـت النـور الـذي كان يسـكنهم، وفي مـرة وهـو عائـد مـن المهمـة لم ينتبهـوا لـه عـلى بعـد أمتـار وراء الأشـجار الكثيفـة، سـمعهم يتآمـرون عليـه ويتوعـدون بقتلـه، فهلـع لمـا يسـمعه رجـع أدراجـه خلسـة وهـو يترقـب ومـن مـكان الجهـاد والإخـوة إلى أقـرب ثكنـة فرنسـيه وتحـول في لحظـة مـن مجاهـد {لقومـي } خائـن نكايـةً في أصحابـه قـضى شـهورا وهـو يقتفـي آثارهـم لينتقـم منهـم فلـم يبلـغ مـراده، وبعـد شـهور أُعلـن إيقـاف إطـلاق النـار وانتهـت الحـرب فلـم ينـل الرجـل، لا بلـح الشـام ولا عنـب اليمـن، عـاش حياتـه زاهـدا يعيـش مـن تعليـم القـرآن في الكتاتيـب ولحسـن الحـظ لم يذهـب وقـاره ولم تدنـس سـمعته لأن أهـل القريـة كانـوا يعلمون بقصتـه والـكل يُناديـه سي صالـح، أفْـرغ مـا كان في جُعْبـةِ بندقيتـه في المَـكان الجُرْح، وهـو يـصرخ خونـة ،خونـة، أنـذال.

ومن الخطيئة أن تكون مسالما ... ومدى دروبك لعنة ونواح

-الشاعر بن راحلة معمر-

قـال أحـد الأطفـال في ذعـر مـن حسـن حظنـا، أننـا وصلنـا متأخريـن، لقـد كتـب لنـا اللـه عمـرا ثـانٍ كي نشـهد عـلى فظاعـة وبشـاعة هـؤلاء يـا رفـاق نتعاهـد عـلى الثـأر لِأصدقائنـا، بـكى لقـمان أصغرهـم حجـما وسـنا

قـال: يارجـل ممـن تثـأر ربمـا فيهـم أخـاك أو أبـاك أو ابـن عمـك تَخَلّطَـتْ آ صَاحْبـي هيّـا نَروّحُـوا لـدّار مـا عَنْدْنَـا مَـا نْدِيـرُو.

الحفل انقلب لمأتم، بدل التصفيق، اللطم على الخدود، انقلبت الغبطة لفجيعة، والتكريم لتعازي، عدنا ونحن نجر أذيال الخيبة، قلت لنجمة هذا هو الزمان الذي قيل فيه» يأتي زمان يقف فيه أحدكم على قبر أخيه يتمنى لو أنه مكانه « ليتنا متنا ولم نشهد هذا الهرْج الذي نتخبط فيه انقلب الحق لباطل لا نعرف من القاتل ولماذا يقتل، ومن يموت وفيم يموت؟ ويضيع آخر في متاهات يخنق نفسه بنفسه بأفكار سامة، معادلة صعبة لن يقدر على حلها أتقى الأتقياء.

الزفاف

بعد أيام، استدعينا لزفاف إحدى القريبات، تلقينا الدعوة والأمل يحذونا على أن نعيش لحظات فرح تمسح عنّا الحزن، الذي لا يفارق مساحتنا القلبية والتي أترعتْ بكل ألوان المِحن.

الأبواب مشرعة، الساحة متخمة بالانتعاش، الأطفال يمرحون تعلو وجوههم البهجة، الدوار روضة من رياض الجنة، البساتين هنا وهناك بشتى أنواع الفواكه متشابه وغير متشابه تكتنفها سواقي تحاكي صفاء السماء، القطعان تسرح في أمان كل شيء يوحي بالطمأنينة والسعادة، اليوم كان حلما لأي أم تزف ابنتها للبيت الزوجية، في أيام صارت فيها الأنثى قنبلة يخشى أن تنفجر في أي لحظة، انطباع أفرزه الاعتقاد السائد منذ الأزل لخوف الأهل على بناتهم وزاد الهوس بهذه الفكرة في هذا الظرف العصيب، فالأنوثة تعتبر أرض خصبة قد تنتج الطيب من الثمار وقد تجدب أو تبور وتموت ثمارها في أحشائها وقد تثمر الزقوم إن هي تمردت على العرف أو تعرضت لوغد لا يقدس الأنوثة ويعتبرها وعاء لرغباته المشوهة، تهمة تطال الفتاة حتى في الأيام التي ينعم بها المجتمع بالسلم والسلام، ما بالك بأيام الصدام والتناحر الظرف الذي أفرزه وحوشا تفترس الغزلان دون سابق إنذار وبدون رحمة، ينسلون من الكهوف الوديان كأنهم يأجوج ومأجوج، أمسية ساحرة غابت الشمس في حياء وراء الهضبة والشفق يطرز السماء يضفي على الكون بهاء ليخلفها السيد القمر بجرأته المعهودة ليفسح المجال لضيائه، أشرقت البطاح، فرقة الرحابة تصدح بنغماتها الأخاذة، سرقني الحنين من الجمع، لأيام الطفولة، أين كانت

الأفراح تعم كل أرجاء الوطن وقع البندير يهز الأنفاس، يغري الجميع ليشارك الرحابة بضرب الأرجل، بارانيسهم البيضاء كأنهم مخلوقات نورانية جاءت من خلف الأصيل يسبحون في الفضاء يتهادون مع النغمات ثم يثبوا وثبة كأنما ينقضّون على فريسة، يتراجعون في حركات منتظمة في كر وفر كأنهم ينبئون العالم بلا مبالاتهم والانتقام من الأسى الجاثم على أنفاسهم، زغاريد النسوة تعلو الفجاج تنبئ أن هناك عرسا قائما المكان طوقه الفرح، كل شيء على ما يرام، أنقضت السهرة انفض الجمع في الهزيع الأخير من الليل، في بهو البيت النساء يتسامرْن يغْنمنَ من الزمن بلحظات أنس، أما أنا كنت منشغلة عن الجمع بمراقبة النجوم أبثها حزني وأنيني وأبلغ عبرها سلامي لمن؟ لا أدري ربما لناصر ربما لعمي محمد لا أدري كنت مشوشة الفكر وعواطفي تنبعث من أعلى ربوة لا تعرف لها مجرى فتبعثرت أحاسيسي في هذه الظروف التي لم نعد نفهم فيها لا أنفسنا ولا الآخرين، بعد هنيهة في الخارج سمعنا صياح وتراشق بالكلمات دب الذعر فينا، لا نفهم ماذا يحدث في الخارج

فاجأنا ستة رجال ملثمين بعدما قيدوا الرجال في الخارج ولحسن الحظ أنهم لم يمسوهم بسوء سقونا كالأغنام مصطفات نتعثر في ملابس العرس الطويلة، واحد يشتم وآخر يقطف من أغصان الشجرة ويلقي بها علينا بكل ما أوتي من قوة ويحثنا بالإسراع ثلاثة في المقدمة وثلاثة في المؤخرة بين الأحراش والأدغال والأشجار العالية والمسالك الوعرة مرة تتسع ومرة تضيق، توخز الأشواك أقدامنا ما نكاد نسلم منها حتى تعاودنا الحجارة بالوخز من جديد ننخفض في سهل ومرة نرتفع في ربوة نرتطم ببركة ماء تغوص أرجلنا في الوحل فيأتي أحدهم ويجلبنا بقوة يرمي بأحدنا على الأرض وهو متذمر يحوقل ينعتنا بشتى الصفات القبيحة، أنتن أضعف مخلوق فوق الأرض وأقواه في الكيد والشيطنة، متبرجات فاسقات سنعلمكن الدين الحق مع الأخوات أيتها

الجاهلات، عمد أحدهم ينزع حلينا ينتقل من معصم لجيد كأنه ينزع فواكه من على أشجار لا يقيم حرمة لا لعجوز ولا لفتاة، وهو يردد: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله)، هذه الحلي ستذهب لبيت المال ننفقها في سبيل الجهاد وعلى الفقراء والمساكين وناصيته المخزية تفضح كذبه وادعاءاته.

عند عتبات الصباح وصلنا الكهف في وسط الغابة على الواجهة لافتة مكتوب عليا بخط عريض، بسم الله الرحمان الرحيم[إذ آوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا]

صدق الله العظيم

منظر الغابة يأخذ الألباب الأطيار فوق الأفنان تزقزق وفواكه برية من كل الألوان والأشكال تزين المكان، جنة فوق الأرض.

دخلنا الكهف على جدرانه كتبت آيات تحث على الجهاد، بسم الله الرحمان الرحيم [وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم] صدق الله العظيم،

بسم الله الرحمان الرحيم [وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم] صدق الله العظيم

وآيات شتى تحث عن الوعيد والنفير وجدنا عائلات من كل الأصناف العمرية فتيات في عمر الزهور ملتحفات بأسبال سوداء كأنهن غربان في الأقفاص عيون تشع قسوة بهالة حزينة يصرخ محياهن بالبؤس دون أن تنطق الشفاه، أطفال حفاة بأثواب بالية يلهون في البهو، أدوات منزلية وأواني لطهي الطعام مرصاة وأخرى ملقاة على الأرض بدا المكان موحشا رغم الخيرات التي يكتنفه وكأنه من عصر ما قبل التاريخ، واحدة تطهو وأخرى آتية من بعيد فوق ظهرها حزمة من حطب وأخرى تحمل جرارا لتجلب الماء من النبع، وفي الساحة رأينا

شبابا في مقتبل العمر منهم الأمرد والملتحي الممتلئ حماسة ومنهم من يبدو عليه الوهن والضعف والتذمر، هؤلاء يبدو أنهم غير مقتنعين بهذا الوضع أم أنهم نادمين على الالتحاق بهذه الجماعة وفهموا أنهم وقعوا في شراك أحبولة الجهال، آخرون يتدربون على أرقى أنواع القتال يقفزون ينبطحون يتعاركون تتعالى الصرخات، الموت للطغاة، الله أكبر دولة إسلامية، لا للديمقراطية الكافرة، لا للعلمانية الفاجرة .

اقتربت من إحداهن وهي تقدم لي فنجان قهوة همست في أذنها وكلي وجل أن تشي بي عند أحدهم على أني جاسوسة أو كافرة جمعت قواي قلت لها كيف تتحملن كل هذا العناء، انفجرت باكية يا أختي واش يعمل الميت في يد غَسالو، نحن هنا سبايا وقد تزوجونا عنوة وأرغمونا على هذه الحياة البائسة، تنفست الصعداء وحمدت الله على أنها لا تجاريهم نفس الأفكار وعلمت أنها ضحية، أكملت أنا كنت معززة مكرمة في بيت أهلي مدرسة بإحدى المدارس القريبة من قريتنا، وفي يوم مشؤوم أغاروا علينا وأتوا بنا إلى هذا المكان أنا وكل الزميلات، قلت لها كيف حافظتن على هدوئكن ولم تجنوا، ومن قال أننا عاقلات أن يعيش عاقلا في عالم يضج بالمجانين هذا قمة الجنون لا تغرنك كلماتهم التي يرددونها عن الإسلام والسلام، هنا عالم موبوء بالسموم والآفات والعقد، أضمر لهم الحقد لكن أحيانا أرأف لحالهم حين ترينهم كيف يخطبون وكيف يتدربون وهم ينادون بعضهم البعض يا أبا قتادة يا أبا الوليد، في يوم نادى أحدهم رفيقه امحند أمزيان زمجر في وجهه آخر، قال له ناديه باسم عربي كالحارث مثلا، أكملت التاريخ يعيد نفسه في كل فترة بطريقة مغايرة لكن المأساة هي نفسها ونفس الغباء، قلت لها في استغراب وما علاقة الاسم بما يحدث، قالت ألا تعرفين قصة المارشال محمد أمزيان، المارشال؟ لا . المارشال المغربي الذي وقف بجانب الجنرال فرانكو وساعده في الحرب الأهلية في إسبانيا

وخرج حتى ضد شعبه مساندا صديقه الدكتاتور جمع له شبابا من أهل الريف للقتال بجانبه وزج بهم في حرب لا تعنيهم ولم يمنعه طيشه وجبروته أن يتجرأ حتى على حمل السلاح ضد أهله وأستاذه عبد الكريم الخطابي رمز النضال والكرامة، تمتمت بيني وبين نفسي، نفس الجهل والخنوع ما أشبه اليوم بالبارحة، أكملت تعرفي أحيانا حين أتمعن في تصرفاتهم أحس أنهم يمثلون فلما سينمائيا أقول في نفسي ربما لو أتيحت لهم فرص التمثيل لما حدث هذا الهراء على أرض الواقع، يبدو أن لديهم مكبوتات إبداعية أصابتهم بهستريا الجنون، تحليل عبقري، يبدو أنها محقة، فجأة صرخت إحدى الفتيات تشكو ألما في بطنها هرع شاب في مقتبل العمر ماذا يحدث؟ قالت إحداهن إنها مريضة أخذ يشق جمع النساء وهو يبسمل ويظهر الورع والتقوى، ابتعدن سأرقيها وأمر أخرى أن تغلي لها عشبة الشيح وضع يده على جبينها بدأ بقراءة آيات من القرآن والكل في حالة ذهول وخوف، والآيات تهوي من على لسانه خبط عشواء يبدو أنه على مستوى محدود من الدراسة والعرق يتصبب من جبينه وعيناه لا تفارقان وجه الفتاة، الذي كان يشع جمالا وقد زاده الألم بهاءً حين جاء المساء دخلوا علينا يبدو أنهم نفس الرجال الذين أتوا بنا بوجوه مكفهرة لحاهم تغطي أغلب وجوههم، لم نتبين ملامحهم بوضوح لأن المكان كان شبه مظلم والأنوار خافتة

قال: أحدهم وهو يقبض عل كفيه في نشوة والفرحة تشع من عينيه غنيمة والنساء في أبهى حلة، سننعم الليلة، تقدم أحدهم من العروس مدّ يده يتلمس مواطن أنوثتها يرمقها بعين همجية .

نادت الأم، بفزع آآنصر أوجلال تستنجد برأس العائلة الأول، عادة نساء أهل الأوراس اللواتي لم يتعلمن وببساطتهن حين ينم بهن مكروه يستنجدن بأجدادهن والأولياء أو الدراويش هز أحدهم رأسه وكأنه هب من رقاد

ماذا قلت ؟ آنصر أوجلال هل تعرفينه

قالت: نعم يا بني إنه جدي

إني أعرف هذا الصوت، بالأخص حين استفسر عن الاسم المستنجد به، اندفعت من بين النساء اقتربت في حذر، أخرجت رأسي لأرى من صاحب هذا الصوت تفاجأت ماذا أرى، إنه نصر الدين ابن عمتي فتى الحي الرصين، كان في حيينا يمشي مطأطئ الرأس يغض البصر كأنه عذراء، يحبه الجميع لأخلاقه العالية، حين رأيته تشجعت تقدمت نحوه، قلت في دهشة نصر الدين ما لذي رمى بك في هذه البؤرة العفنة؟ تقدم أحدهم مني، صوب المسدس لرأسي، أيتها المتبرجة الفاسقة كيف تكلمين الأمير بهذه اللهجة، ارتجفت أوصالي كأنها وصلت بسلك كهربائي، أزاح نصر الدين المسدس برفق دفعه بعيدا

قال: كاهنة ماذا تفعلين هنا؟

رجالك هم الذين أتوا بنا إلى هنا، بادر ومن هذه التي استنجدت بجدنا؟ إنها بنت عمي موسى هل سمعت عنه ؟ نعم سمعت عنه كانت أمي دائما تتحدث عنه وعن بطولاته، ثم بادر هل ترين أمي ؟ قلت نعم وهي تتحرق شوقا لرؤيتك ولأخبارك أنها تتعذب لغيابك، واصلت ماذا تفعل هنا وما هذه الحالة التي أنت عليها؟ والآخرون ينظرون إلي في دهشة وربما بخيبة أمل، لأن الغنيمة صارت بعيدة المنال

قال: حكم ربي إننا نناضل لنقيم شرع الله

قلت: وهل تقيمون شرع الله بقتل الأبرياء وخراب الأوطان، يا أخي نصر الدين أنت تهدر شبابك في سفك الدماء، والتيه بالجبال، نظر إلي في حنو وحزن، كانت عيناه تنم عن ضياع وحيرة، كمن يعتذر طأطأ رأسه غرز نظره في الأرض ساكنا، ثار آخر وبعنف جذبني من كتفي، بلّعي فمّك تعطينا محاضرة، تقدم إليه نصر الدين صفعه حتى سقط على الأرض، صمت، نهض

وهو ينفض الغبار من على لباسه، تقدمت نحوه أتوسل إليه أن يدعنا تقديرا لخاله وجدنا انصر اوجلال وضع يده على كتفي قال بلغي أمي أني بخير، وأمر رجلان أن يمضيا بنا غدا عند الفجر ويوصلنا إلى الديار وأوصاهما بنا خيرا ونبّههما على أن لا يقتربا من المكان ويتركونا عند مشارف الدوار ويعودا إلى مقرهم، حمدنا الله، لولا أن الله أوحى لهذه الأم أن تستنجد بجدنا لما نجينا، وأصبحنا كعصف مأكول وليمة للصقور والغربان، وعند وصولنا استقبلنا الرجال في حيرة وذعر

قال: والد العروس هل حصل لكن مكروه ؟ وكيف نجوتن من أيديهم ؟

قالت الأم :نجّانا سيدي انْصر أُوجلال

يا الله أينما نُولِّي وجوهنا نجدهم، أشباح تهوي من كل حدب وصوب، من أعلى الربوة من على الشرفات في الظلام في النور لا يوجد مكان نأمن فيه، السرطان غزى جسم الوطن من أقصاه إلى أقصاه، إيه يا وطن السقم دمر حناياك، من يداوي جراحك من يعدل خلل أفكار أبناءك، متى تشفى وتقوم ممشوق الهامة عزيزا، كما عاهدناك لقد لوّثوا عذريتك شرفك على شفى جرف هار.

تذكرت قول الشاعر وهو يناجي الوطن بلهفة المشتاق بأنفاس حر يرجوه أن يقوم فقط كيفما كانت حالته:

تعال مقيدا، تعال كما تهوى ... فهذي يدي ممدودة

-دحوالعربي

إنها الفجيعة، الوطن صار ممدودا على فراش الموت، يلفظ أنفاسه الأخيرة مرت الأيام، كنت ألتقي بعمي محمد صدفة أو ربما كان يقصد الأماكن التي يفترض أن أكون بها والاتجهات التي أسلكها، فللعاشق حاسة خاصة يقتفي بها درب عشيقه، صفة لا يتميز بها إلّا العاشق المتدرِّج في درجات الكمال العشقي

كنا نسرق من الزمن لحظات، ننعم فيها بالحديث، روحين تحلقان فوق سماء الوهم، يثخنني في كل مرة بموجات نضجه، يجعلني زئبقية، لا أستقر على حال، الحيرة تملك علي كل كياني.

قلت :في نفسي يا وجها ضاع بين الوجوه، أبحر في عينيك العسليتين بشراع أهدابك، المثقلة بهم الزمان.

قال لماذا تحملقين بي ؟

قلت: أبحث في شعيرات رأسك عن ضالة تاهت في نفسي علّه يوصلني زورق الضياع إلى شاطئ الأمان.

أسند رأسه لجدار، آه الأمان، ظننت أني وجدته حين استقلت الجزائر وها نحن نعود من جديد للتيه والعدو منا وفينا وهذا أخطر، في الحرب التحريرية كنا نعرف من العدو ومن الصديق إنها الكارثة ثم واصل آه وأنت يا طفلتي رميتي بي في بحر متلاطم على الأمواج.

أطرقت واجمة أردد بيني وبيني، آه سيدي كم أنت رائع بخصالك النادرة

ما بها صغيرتي؟

أفصحت له وأنا أتصّفح وجهه إني أرسم أثمال حبي على تشنّجات وجهك التي خطّها محراث الدّهر فأحصد لحنا غريبا، يطردني إلى صحراء قاحلة بلا أمل أحمل أتعاب النسيان، يطعنني عنادك لدفن أسرار أزهرت في أعماقك .

آه ما أحلى كلامك يسْري في روحي كما يسري الماء في الساقية.

أيا امرأة نطقت على لسانها ملائكة السماء

أيا امرأة أضاءت في روحي عواطف ظلماء

-روضة فيلالي-

نظرت إليه بإعجاب واستغراب تأملته وكأنني أستمع لسيمفونية تموج بين الأرض والسماء تؤديها حوريات الأصيل.

واصـل، آه كـم مـن عـوالم أيقظتـي فِي، أنـت تُعِيديـن لي الصّفـاء الرّوحـي، تنعشـين الوجْـد في أعماقـي بعدمـا نسـيت رسْـمه وكُنْهـه .

العودة

عـادت سـارة بعـد أربـع سـنوات مـن الغربـة برفقـة زوجهـا، علامـة اللـؤم بادية عـلى محيـاه يحـاول أن يرسـم عـلى وجهـه الـورع، يبـدو أن خديعتـه بـدأت قبـل شـهور، لقـد أخبرتنـا أنـه صـام معهـا عاشـوراء وكان يسـتمع للقـرآن، بيـد أنـه مـن قبـل، لم يكـن متديـن حتـى شـكت أنـه لا يصـوم، حيـث كان حـين يحـضر رمضـان في العطلـة الصيفيـة يذهـب للعمـل بالباخـرة بحجـة أنـه يزيـد مـن دخلـه يتركهـا وحدهـا في البيـت، تتلـوى مـن وحـدة الغربـة في تجاهـل تـام، تعـاني سـوء معاملـة أمـه المسـمومة، امـرأة مارسـت العهـر حتـى يخيـل إليـك حـين تنظـر إليهـا أن الشـيطان يرقـص عـلى محياهـا، وحـين يعـود مـن العمـل يمـر عليهـا تشـحنه ضدهـا، شـتم وضرب لأتفـه الأسـباب، الأواني ليسـت نظيفـة كـما يجـب، يتحسـس الأرضيـة بأصبعـه، يـصرخ في وجههـا فنيانـة fainéante

وفي ليلـة أشـبعها ضربـا جردهـا مـن ثيابهـا دفـع بهـا نحـو الخـارج وأغلـق البـاب، بكـت بمـرارة والوحشـة تلفهـا إيـه هـذه هـي فرنسـا الـلي حلمـت بهـا، الغربـة ومـا كلـت الشـعير، في الصبـاح الباكـر خـرج جارهـا الشـيخ ربـط عـلى كتفهـا قـال في حنـو

oh.. ma pauvre fill que

dieu sera avec toi

تنـاول العشـاء معنـا وهـو صامـت، سـاورتني بعـض الشـكوك، وخاصـة حـين طلبـت رقـم هاتفـه الجديـد كي تتصـل بـه عنـد الحاجـة، أمـلى عليهـا الرقـم متعمـدا الخطـأ، لاحظـت ناصيتـه الكاذبـة تفضـح نواياه، زادت حـيرتي لكـن لا أحـد كان يتصـور أيـة

خطة في ذهنه، هاتفته كثيرا لكن دون جدوى، احتارت في سرها ولم تكشف لأحد عن قلقها، يومين ثلاث، لكن دون جدوى، وفي الأخير هاتفه أبوه وينك يا ولدي خفت عليك بزاف، قال أنا في فرنسا، اغتاظ أبوه من هذا التصرف أحس بالحرج من ابنة أخيه ألقى برأسه على الحائط حتى دندن الصوت من وقع الارتطام، ضربت الكف للكف قالت لكواغط «الوثائق»

ذهبنا أنا وهي لبيت أبيه والقلق يسيطر علينا دخلنا الباب وكأننا نلج للجحيم، جاءت بكرسي تسلقته بدا لها كأنها تقوم بمجازفة من خوفها، مدت يدها حيث وضعت الوثائق ثبت تخمينها وزاد قلقها امتعضت وامتقع وجهها علته صفرة، وضعت يديها على خديها، سرقهم الكلب، تسمرت في مكاني بينما استمرت هي في البحث تبعثر الأثاث من فوق لأسفل من داخل الخزانة، لعلها تكذب ظنها وتجدها في مكان ما، لكن دون جدوى بدأت تستعيد شريط الأحداث أمام ناظريها، آ، لهذا كان في الطائرة يتأمل رقبتي ومعصمي وهو ينظر للحلي ربما فاته أن ينزعها مني ثم أردفت وقد بات الليلة وهو يكلم خلسة أمه وأخواته إنها مؤامرة أحيكت ضدي.

غادرنا المكان في أسى لم أشأ قول أي شيء، طعنت في كرامتها، تغلغلت الخيبة في أعماقي أحسست بمرارة تعتلي ريقي، وظلم ذوي القربى أشد مضاضة، تذكرت عمي وقوله ومعارضته الشرسة، فراسة الكبار يقرأون المستقبل من خلال المعطيات، يومها قال «الطائرة من فرقها موكولة» أيام عسيرة، الألم جاثم على صدرها، تتذكر الأيام التي قضتها في فرنسا، قالت :في بادئ الأمر لم أتحمل الغربة وحين تأقلمت هناك أعادوني إلى هنا، والآن صعب عليّ أن أتأقلم هنا، يا ويلي تبعثرت ذاتي وبكت .

نهرتها جدتها بقولها تبكي على كلب السلوقي، بادر أخوها وكان بجانب جدته بل كلب فرنسا، واصلت أنت عزيزة بين أهلك وناسك لن يخصك شيء

قلت عن ناس المهجر
مسيح ينزل البلدة
غريب هنا
غريب هناك
والغربة جسد مهترئ
هوية ممزقة
نوارس تسكن الأرصفة
تبحر في المدن الغارقة
صارخة أين مكانيَ
قلوب عطشى
صارخة أين انتمائيَ
هاتفته، قال لها الوثائق عندي أبكي الآن،

tes papiers sont chez moi maintenant pleure

بكت احتسبت الله قالت له سأشتكي عليك، قال لها أنا ابن فرنسا لن يحدث معي شيء، أعدناها بعد جهد جهيد بإعانة أصدقاء العائلة، بسبب البيروقراطية، أعادت جواز سفرها بصعوبة وأخيرا تحصلت عليه بعد شهرين من الترقب والحذر، جاءها هاتف من القنصلية أن تذهب لإحضار الفيزا، باتت ليلتها وهي تهذي، هل سيمنحون لي الفيزا أم لا، قلت دون أن أفصح لها، يا ويلي الفيزا من جديد لكن هذه المرة، كنت أتمنى أن تأخذها، لأني أدرك أنها لو بقيت هنا ستجن دون شك.

في الصباح الباكر ذهبت مع عمها، هاهي تدخل علينا، وقد اعتلت وجهها مسحة الفرح، تنفست الصعداء حين رأيتها مستبشرة تحمل علبة الكعك، ابتهجت فرحا قبلتني.

أعدناها بمحض إرادتنا إلى أحضان الغربة وحيدة للمدينة العاهر، التي تحيط بأحدهم من كل جانب كي توقع به في شراكها، خفنا عليها من أضواء المدينة وفنتازيا زيها المزركش بشتى ألوان الفتن أمطرناها بوابل من النصائح بأن لا تنخدع ببريقها، أو أن يجرفها التيار ويزحزحها عن جادة الصواب وتجتث من قلبها الطاهر بذور الإيمان، فتهتز البسيطة تحت قدميها وتتمايل استقامتها نحو اليسار، وربما يقع هذا بفعل التذمر أو الضعف، المنافي تسرق منا ألفتنا تغير ملامحنا، تعرِّينا من هويتنا، ليصبح أحدنا كالغراب الذي حاول تقليد الحمامة في مشيتها فنسي مشيته ومشية الحمامة، قلنا لها احذري والله هو المعين، ودّعناها مُرغمين، الجدة ممسكة بيدها تباركها، الله ييسّر لك لبلاد والعباد يابنتي ربي معاك ارفعي راسنا ولا تشمتي بنا الأعداء، غادرت وحين

وطأت رجلاها أرض الغربة لم تجد أين تتجه، مشطت الطرقات وهي تفكر أين تذهب، يا الله هل سيظل التيه يلاحقني، حين جاء المساء أحست بالذعر يد ب في كل أوصالها، بينما هي على حالتها أنبعث صوت من إحدى السيارات ركنها شاب جانبا ومضى لبعض حاجة، كان القدر يدغدغ جرحا وهو لا يزال ينزف

للمغنية indila

Derniér danse

Oh ma douce souffrance pourquoi s'acharner

Tu recommence je ne suis qu'un étre sans

inportance

بكت بأعلى صوتها، أيقظت الأغنية فيها كل المواجع والحنين يتدفق من أعلى ربوة العمر المفجوع بالخيبات، اجتمع حولها بعض المارة، كان من بينهم كهل جزائري يبدو أنه يمارس الشعوذة، سألها ما خطبك بنيتي؟ حكت له قصتها قال لها إن شئت حولته لحمار تفعلين به ما تشائين، قالت معاذ الله، لا ياعم حسبي الله ونعم الوكيل، وما إن أكملت عبارتها تراءت لها صديقتها أناييس انشرح صدرها، نادتها رحبت بها أخذتها للبيت، حقا من يتقي الله يجعل له مخرجا ولأناييس هذه حكاية، أفرزتها الأنانية الذكورية حين تراها تحس للوهلة الأولى أنها عربية قوام معتدل، ممتلئة، كمهرة عربية بعنين سوداوين يسكنهما حزن عميق، الشعر الأسود ينسدل مسافرا فوق كتفيها، يقال أن أمها كانت على علاقة برجل عربي، حملت منه وقبل ولادتها غادر إلى غير رجعة، عاشت البنت ابنة أمها عانت فقدان حنان الأبوة ولم تستأنس بحضوره أصبحت كقشة فوق الماء تعاني ضياعا وفراغا كبيرين، فحين تنثر الأصلاب هكذا مع الريح في محض الصدف دون أي تقدير للحس الإنساني

تولد المأساة، فتحت عينيها لترى صديق أم أنايس يفتح باب الغرفة يدخل عليهن في الصباح الباكر دون استئذان علمت أن لا مكان هنا آمن، غادرت إلى بيت إحدى قريباتها، بعدما هاتفتها أم الفتاة أَنِ اذهبي إلى ابنتي فهي تنتظرك رحبت بها، كانا زوجان حديثي العهد بالزواج والغربة، إنها تضحية لا يتسم بها إلا من تشبع بروح الأجداد الكرم من أجل الكرم والنخوة من أجل امرأة تحتاج لإيواء، تنامان على السرير وينام هو على الأرضية، قبل أن تستعبدهما المدنية والحضارة الكاذبة وتسلبهما ما تربيا عليه وتدنسهما المدينة العاهر بمبادئها المعادية للتضحية وتغذيهم بمعادلة، أنا ولا أحد، لا نكران للذات، كن أناني، عش لنفسك، الأنا هو الكل، أنا وبعدي الطوفان، باتت ليلتها تنعم بدفء العائلة وبريق طفلين رائعين يضفيان على البيت جو من السعادة، وفي الغد تبدأ رحلة أخرى، مع المدينة العاهر والمغامرة في أحضانها، عرجت على الحي الذي فيه بيت زوجها، وجدت بعضا من ملابسها في القمامة، أراد أن يتخلص من ذاكرته معها، تحسست كنزتها الصوفية، ملابسها الداخلية الحريرية، حذاؤها الأسود سواد قلبه، بكى قلبها سكنت في أعماقه غمامة مظلمة، ذاكرتها الحميمية ترقص على قارعة الطريق رقصتها الأخيرة، قبل أن تدفن في زاوية من زوايا الذاكرة، مايزال العمر يعتصر ويجهد الإنسان بعبث الزمان، أعادت بناء حياتها بشق النفس، بقيت تضطرم كموج البحر، بين إعادة ملفها الخاص بالإقامة والمحامية التي في كل مرة تطلب منها إثباتات على أقوالها، تخبرها أن زوجها يتهمها بشتى التهم، أنها جعلت حياته جحيما لا يطاق حتى وصل بها الأمر أنها ضربته بسكين، تبنى كل الباطل الذي وقع عليها لصالحه، تاهت كبوصلة بيد كاهن يديرها أنّى يشاء، ليوقع مؤامراته على كفها البريئة، كلما عرفت أنه بهذا اللؤم، خاب ظنها فيه، صغر في عينها وانحط في ميزان قلبها .

الفراق

وحـده عمـي محمـد يحـضر حـين يلـف الحـزن روحـي، دخـل عـلي في مكتبـي، أسـند ظهـره للجـدار مطأطـئ الـرأس، كمـن يتـألم، وقفـت مـن مـكاني أقـترب منـه شـيئا فشـيئا أقـدم رجـلا وأؤخـر، المسـافة إليـه تبـدو بعيـدة ووعـرة، صافحنـي قـال المـكان لا يصلـح للحديـث، طلـب أن يلتقينـي في مـكان آخـر، اتفقنـا أن نلتقـي بمدينـة قريبـة، انـصرف.

صباح الخير

صباح الخير

ذهبنـا لحديقـة عموميـة، جلسـنا جنبـا لجنـب، صمـت طويـلا ثـم قـال وبـدا كمـن يكلـم نفسـه، وأننـي لسـت موجـودة والريـح تصيبنـي بعـدوى العطـر الـذي ينبعث منـه مزيـج برائحـة عرقـه، رائحـة الإنسـان فيهـا الكثـير مـن الـدفء الـذي نتمنـى أن يسـكننا إلى الأبـد، رفعـت رأسي حـولي والضيـاع كان وجهتـي، الجـو شـتاء، أطفـال حاملـة محافظهـا عـلى أكتافهـا، أنـاس تغـدو وتـروح، آه لـو يرجـع الزمـن للـوراء لأعـود طفلـة حتـى أعـدو في الحقـول كفـرس بـدون فـارس يتحكـم في وجهتـي أعـبر الغابـات، الوديـان، هنـاك حيـث تلتقـي الأرض بالسـماء لا غيـوم تغطـي شـمسي ولا لجـام يحـز جيـدي، ولا أقـدام تحمـل رؤوسـا سـوداء تدنـس عفويتـي وبيـاض سريـرتي الـذي أخـذ يتضـاءل مـع الزمـن.

الأشـياء الجميلـة تـأتي دائمـا في ثناياهـا الممنـوع تولـد مـن الأعاصـير، أنشـد «حـالي حـال الطّـير الـلي قَصّولـوا الجْنحِـينْ وقالولـو اعْـزمْ طـيرْ»

ثم قال: إني أستحي من نفسي ومن هذا الذي يحدث

قلت مم تستحي؟ لم تفعل ما يستدعي ذلك، أنا لم أر منك أي شيء مشين أنت تعاملني كطفلة آه يا طفلتي أنت جئت متأخرة بزمن وأنا جئت قبلك بزمن

قلت: الحب قدر، إنه يباغتنا في أي عمر

قال:إنني أسرق زمن غيري، لقد قررت أن يكون هذا آخر يوم أكلمك فيه هذا أفضل لك، لا أريد أن أظلمك، غمرتني نشوة من أن يكون بهذه الشهامة.

قلت وغمامة حزن تلفني، إني أحترم قرارك، أحسست أنها أظلمت فجأة وأن الشظايا التي كانت تنير لي المدى تلاشت، فهو بالنسبة لي الفاكهة الناضجة، زبدة التجارب، الأمان المفقود، بحر بمده وجزره تتلاحم فيه الأضداد، متسامح مع نفسه والآخرين، أسبح فيه دون عناء نظر إلي مليا وكأنه يحتضر أخذ يعتذر مني، كمن يعزي نفسه، قال أخشى أن أشعل النار من حولك

«تعرف نفسك أنك عاشق حين تتصرف ضد مصلحتك الخاصة « -فرويد-

واتفق أن هذا الكلام في مستوى التجربة الإنسانية، فأنا لم أتصرف ضد مصلحتي الخاصة فحسب، بل أشعلتها نارا، تأججت فأحاطت بكل كياني المعنوي، فالعشق كالسرطان إذا غزى الروح فإنه يؤدي بها لمزالق التهلكة، وخاصة إذا غزى النفوس الصادقة التائهة في عوالم الحنين، فإنه يقتلها مع سبق الإصرار والترصد، ناولني ورقة وانصرف، انصرفت بدوري، كتب علينا أن نبقى ندور في الفراغ، كفراشات بلهاء، إن عشنا الوضوح تقنا للغموض، وإن عشنا الغموض تقنا للوضوح، إنها دوامة الصراع النفس البشرية، والحياة في أخذ ورد وجذب ومد.

حين عدت للمنزل فتحتها وجدت في مطلعها مثل من الأمثال الشعبية

يقول، « صاحب لَمْظَرّة ما هُو صَاحبْ « أنت يا فتاتي مصباح أضاء ظلمة أيامي، سعدت كثيرا بهذه الصدفة التي منحها لي الزمن، تجسد أمامي كشجرة السرو العالي يرمي بِظلاله على الغرفة تطفئ الحرائق التي بدأ اشتعالها من

أخمص قدمي إلى أن وصلت غرة الرأس، الذي لم يتحمل كل هذه الزلازل تتدحرج تحت قدمي أينما حللت، فعشاق الوهم والفضيلة يستمرون في الحياة غرباء رفيقهم الوحيد الذاكرة المرّة المغمسة بالعسل، كالسم في الدسم رسمها يشبه الخط الكوفي طويت الورقة أكثر، أحسست أن خيبتي ستكون بعدد سنين عمره، بلغة مستعصية معانيها أو تخيلت أنها كذلك فلم أعد أفقه أية لغة، تعطل ذهني، عمْق وطهْر لا يسْكن إلا النفوس النقية الزاهدة، كفاكهة شهية في أعلى شجرة والشجرة في أعلى ربوة والربوة محاطة بأسود مكشرة أنيابها.

أنا الذي حاربت من أجل الحب والسلام ها أنا أدفع ضريبتهم اليوم، قاومت بكل أنواع الأسلحة بجوع الروح والجسد، تحملت قساوة الجبال بأقدام حافية، دست على الأشواك، أفترش الصخور وأتغطى السماء.

الحب وهم نخلقه نحن أم حقيقة لا يجوز التفريط به مهما كلفنا الأمر، كل يقيني وقناعاتي تغشاها الشك، أهو وهم استعذبته أم يقين ضيعته بجبن أو بشهامة لا أدري، قدح شاي ممزوج بالعسل سرعان ما ينضب، فأرى الكأس يحدق بي فارغا لا يملؤه إلا الوهم، ها أنا ياطفلتي أرفع كل الرايات البيضاء والسوداء، البيضاء كي أحررك مني وتسعدي بعيدا عني وتبني قصرك فوق أرض صلبة وليس فوق الأطلال، أما السوداء فهي لي، سأمضي أجر حزني وخيباتي إلى قبري علني أجد السلام مع من ناضلت معهم من أجل الحب والسلام، خرج من غرفتي وحياتي شبح يلفه النور وإلى الأبد.

ويحدث أن ينتقل الوجدان لمرفأ آخر من مرافئ الحياة، هيهات أن تصل الروح لما تصبو إليه

نقطة الملتقى والمنتهى حين نعرف أننا نمسك بالسراب.

على باب المشفى ناصر معلق بين الأرض والسماء ينتظر، سلمت عليه، البياض

يغطي رأسه وملابسه، قلت في دهشة كيف جئت في هذا اليوم الماطر المثلج وهل الطريق مفتوحة؟ قال حافلة واحدة كانت تمشي كالسلحفاة، ولمَ كل هذا العناء، الشوق يكاد يقتلني لم أتحمل كل هذا الغياب سنوات لم نلتقِ ألا تشتاقين أنت لي؟ صمت، قال يبدو أنني أفرض نفسي عليك، قلت ليس كذلك كل ما في الأمر أنني لا أريد أن أجلب لنفسي الأقاويل أظنك تفهم، أفهمك وأنا أيضا لا أريد لك ذلك، أخذنا طريقا محاذيا للطريق الزراعي بعيدا عن المارة، سألته كيف أحوالك مع العمل؟ أردت أن أفتح باب الحوار فعكرت مزاجه دون أن أقصد، بدأ يتكلم بمرارة عن متاعب العمل والبيروقراطية التي تعوق جهود العمال النزيهين، المدير المستقيم يطير بعد شهور معدودة بسبب المكائد التي تحاك ضده وللاعبي {المحتال} يلتف حوله المتملّقين ويقتسمون الوليمة فيما بينهم، قلت «كلنا في الهم شرق «هذا هو حال المؤسسات في كل البلاد التلاعب، النفاق، المكائد، من يحبونه ويتعاون معهم على الخراب يفوز بكل الامتيازات، أما الإنسان النظيف يبقى على الهامش، العفن يلف كل أرجاء الوطن، أحس أن لا مكان للغرباء الأوفياء في هذه البلاد، قال جئتك كي أفرغ بوح القلب المنكسر، وعشقا أكابده يكاد يأخذني للجنون وأنت تجرينني لحديث بائس، يبدو أن الحب أخذ إجازة في زمن الفجائع والإنحطاط، كل عشاق الدنيا يتنفسون هواء الحرية وفرص الحب متاحة لديهم في كل مراحلهم العمرية، ينعمون بلحظات الوهج تحت أي سقف، أما نحن نلتقي في هذا لقفر حتى الطبيعة تواطأت ضدنا لا شيء هنا يثير الأشياء الجميلة التي تحملها قلوبنا الصغيرة المتعبة، ما بها الطبيعة؟ ألا يغريك هذا البياض وهذا النور الممتد، آه برد بلا دفء هو أقسى عقوبة للعاشق، وبياض دون خضرة إنه يشبه كفن الموتى وهذا الصمت يشبه صمت القبور، يا لتشاؤمك ! كيف لا أتشاءم ؟ حتى الحلم ممنوع، نحن نعيش في مجتمع يكبلنا بغبائه وبنظرياته البائسة، لقد

حاولت مرارا نسيانك لكن أجدك تسكنين أدق التفاصيل في حياتي، سبّيتك في سري لعنتك جهرا وقلبي يصرخ باسمك وكأن سحرا أصابني لا يريد أن يغادرني، كم أنت قاسية كاهنة كل هذه السنوات بعد اللقاء الأول، لست قاسية كما قلت نحن في مجتمع يكبلنا وأعراف تحذرنا من التوغل في حماقات الحب وغالبا ما تكون محقة لما نسمعه من المآسي التي ترتكب باسم الحب، ليس كل اللذين نلتقي بهم صادقين ويعرفون مسؤوليته، أحيانا يدخل الواحد منا المغامرة فنُأخذ إلى المهالك التي نخرج منها بجروح وشروخ تسكن قلوبنا دون أن تدفع لنا إيجارا نرمم به أوجاعنا، وحدها الأسلاك التي برأسنا تحاول أن تشفي بعضها، لكن يبقى البعض منها عالقا بإحدى شقوقه، ويفشل الحرفي ويغيب المهندس الحاذق في إعادة بناء حياة خالية من الأوجاع .

كنتِ مجرّد حلم راودني لسنوات حتى أنه زارني طيفك ببيتنا من فرطي هوسي بك، ذات ليلة تجسّدتِ أمامي، كلّمتك أحسست بأنفاسك تملأ الغرفة بدا وجهك كالبدر في ليلة حالكة الظلمة، تلمسته كان شفافا وبدا نورك يضيء المكان كقديسة حضرت لتلقّنني كل المعاصي الممنوعة بكل النواميس، في الغد سألت أختي، هل كاهنة مازالت هنا، فزعت من؟ كاهنة صديقتك، لم تأتِ معي أبدا، ياولي ! أحسست بالحرج يبدو أنني سأجن من ورائك، لولا كلماتك التي كانت تؤنس وحدتي وتدفئ برد روحي لجننت حقا .

تأملته مليا، أصدْق القصص وأروعها لا تنته إلا بالحرائق والفجائع قدرها أن تتهوى كنجم في قعر بحر منسي .

ناصر مولع باقتناء التحف فنان في كل شيء، حين هم بالذهاب أدخل يده في جيبه أخرج سلسلة فضية تتوسطها غزالة وهبني إياها، حين عالجتها وجدتها تحفة فنية رائعة، رفعت رأسي في تأني وأنا أبتسم قلت «وتهبني غزالة وخريف العمر لم يعد يقفز للهداية» تباغتينني دائما بالأبجدية الساحرة تحبسين

أنفاسي، أمامك أجد نفسي أقف على حافة الموت، الزمن يسحب من تحتنا أيام الفرح نحن نعيش على الهامش، مد يده وضعها على كتفي، كمن يصوغ خلاصة القول، شوفي، خريف العمر أو شتاؤه في كل الحالات كنت سأهديك عمري وروحي وكل ما أملك، هذه حياتي صوّبي بوصلتك أنّ شئت فقط دعينا نكون مع بعض، تملكتني الدهشة وقفت مصدومة كصنم أمام هذا الحب الكبير والصدق اللّامتناهي الذي تسكنه الأعاصير، خلطة سحرية فيها الكثير من الريبة والهزات البركانية العنيفة والتي أجد صعوبة في احتوائها.

تذكرت قوله يوم التقينا أنت راح تكون مشكل كبير في حياتي، حقا كنت مشكلا في حياته طوال هذه المدة كنت هاجسه الذي يتنفسه، السجن الذي دخل فيه بمحض إرادته أصبح مجنونا بي، حيث كان لا يفارقني أبدا في أوقات عمله يهاتفني ويترك السماعة مفتوحة، قال حتى أشعر بسكناتك وحركاتك، وفي الليل يجلس قبالة الكنيسة وعينيه على القمر، إني أراك من خلاله هائما في هذا الفضاء أبحث عنك، هل أنت بين النجمات أم تسكنين القمر أم ربما سافرت روحك عرجت كالمسيح للسماء تاركة وراءك جسدا أنهكته الآلام والمتاعب، قلت لصديقتي جميلة، أكاد أجن أحس أني أختنق، في الحب يجب أن يكون هناك قدر يسير من الفسحة وإلا قتلني هذا الحصار، قالت «ومن الحب ما قتل» هذا هو جنون الحب، أما عنك فأنا أعرف مبدأك كما كنت ترددين على مسمعي، الجنون هو قمة العقل، وتيهك وغواياتك في دروب الكتابة لا غير، وهذا ما يجعلك قوية، لست قوية، أنا أقاوم ياعزيزتي فقط. أكملتُ هو مرهف الحس بريء رغم شططه ورغم الخرائب التي تظهر على لسانه، إلا أن روحه صافية كالماء الرقراق، أحيانا أشفق عليه وأتخذ لجنونه عذرا رغم أنه يتفنن فيه حتى يأخذه إلى أقصى حد، يبدو كباقة من الورود تحفها الأشواك، فهو يضرب بالعادات البالية عرض الحائط، لا يغريه زيف

الحيـاة ولا لهـو الشـباب ولا يشـوبه لـؤم، يحـب بعمـق وبـكل حواسـه، يتـصرف عـلى سـجيّته، ألّي في قَلْـبُ عـلى لسـانُ ورَاسْ مالـوُ الإنسـانيةُ، مـما جعلنـي أجـد صعوبـة في أن أضعـه في خانـة المغضـوب عليهـم، وأتـرك لـه زاويـة في قلبـي يغـرد فيهـا حتـى لا يمـوت مـن قهـره، مـرت سـنوات والأضـداد تتصـادم بداخـلي، أتأرجـح بـين زمنـين شـباب بأفـق مظلـم، وشـيخوخة لزمـن هـارب لا أكاد ألمسـه حتـى يتـسرب مـن بـين أنامـلي

وبينما كان الحزن يعتصرني رن الهاتف

مساء الخير

مساء الخير

كان نـاصر، البارحـة فقـط كنـت عنـدك والآن أجـد نفـسي أشـتاق إليـك أكـثر مـن ذي قبـل كـم أود أن أتحـرر منـك لكـن لا أجـد لذلـك سـبيل.

أعـدت عليـه في تثاقـل، اسـتردت قـواي بصعوبـة، سـيحررك الزمـن يومـا مـا، أخـذ يعاتبنـي يبـدو أنـك أنـت الأخـرى ترديـن أن تتحـرري منـي، أم أنـك لا تؤمنـين بالحـب أو لا تشـعرين بـه اتجاهـي

قلـت الحـب ضرورة إنسـانية، لـولا الحـب لأصبحـت الحيـاة رمـادا تـذروه ريـاح القسـاوة كيفـما تشـاء، والفيلسـوف فرويـد قـال « الحـب ينـم عـن نفسـية متزنـة « ونحـن يبـدو أننـا لسـنا متزنـين نفسـيا لم نبلـغ ذروة النضـج بعـد، وإذا بـالآذان يقاطعنـا أخـذ يقلـد الآذان باسـتهزاء، تحجـرت العـبرات في حلقـي، فزعـت مـن هـذا التـصرف .

قلت في استغراب ألا تصلي؟

قال ولمَ ؟

بادرت لا إله إلا الله محمدا رسول الله

فاجأني، أنا لا أقول رسول الله أكمل ألا ترين معي أن المسيح أطهر م.....

وهنا كانت الطامة الكبرى

أغلقت الهاتف دون أن يكمل عبارته، فحين يُعبث بالمقومات يلزمنا القرار، وفي هذه اللحظة تبادر إلى ذهني، يوم أهديته المصحف حين أمسك به ويداه ترتجفان، حالة التعبد إذا لم تكن مجرد هذيان، الكنيسة لم تكن مجرد مكان أثري، صرخت أنا غبية، مهبولْ، طوال المدة كانت يدي تمتد للهاتف بينما كان عقلي يصده، فقط الفضول يدفعني كي أعرف كيف تتحول من مسلم لمسيحي، مجرد فضول، يرد عقلي الفضول يمكن أن يدخلك في مأزق أنت في غنى عنه، تمتد يدي فأصدها، سألتني جميلة هل مزال الهاتف مغلق، قلت نعم، نعرفك كي تقرري شيء تعمليه، لا أخفيك سرا أريد أن أفتحه لأفهم منه فقط ، لن يهدأ لي بال حتى أعرف، أو أكسر الهاتف وأبتلع الشريحة، أكملت كم أتمنى أن يضيع هذا الهاتف الملعون وأستريح، بعد لحظات وأنا أستعد للخروج من مكتبي أخرجت الهاتف من مئزري وضعته على المكتب، هنا انقطع التيار الكهربائي لثواني ثم عاد، في الطريق تحسست جيبي صرخت الهاتف !تفقدت الحقيبة لا أثر له، عدت أنا وجميلة للمكتب لا يوجد، قالت سبحان الله قبل قليل كنت تتمنين ضياعه أليس هذا ما تريدين، إيه الآن فقط ارتحت، غادرنا، في الغد جاءتني فريدة وهي الأخرى كانت معنا في المكتب ساعة ضياع الهاتف، كاهنة هاتفك لقد رأيته عند صورية، هذه الأخيرة بقدر ضخامة جسدها بقدر غبائها، شخصية هستيرية لعوب «تبيع القرْد وتضحك علّى شْرَاه « قلت لها لا أريده فلتأخذه، كيف؟ لن تقولي لها شيء ؟ لا، لا أريده، بعد أسبوع دخلت علي جميلة، قائلة كاهنه صاحْبتْ دعوْتك اتزوجت رَبْحتْ على تليفونك، حقّا ومن سعيد الحظ، لقد تزوجت من مقاول، طلق زوجته لأنها خانته، يا لقدر هذا التعيس من خائنة لسارقة، مسكين.

بـادرت إحـدى المنظفـات في العقـد الخمسـين مـن عمرهـا، إيـه كتبـت مـن عنـد سـيدي عامـر، أضافـت زميلتهـا سـيدي عامـر انتـاع المعجـزات، روحـي اكتبـي مـن عنـدو كاهنـة لعـلاّه يرزقـك ربي، تملكنـي الرّعـب، يالطيـف أنـا انـروح لهـذاك الفاسـق، ارتعـدت فرائـس المنظفـة، الشـاي للـه يـا سـيدي مسـلّمين مكتفّـين، وهـي تضـع معْصَميهـا مكتوفتـين عـلى صدرهـا، نظـرتُ لجميلـة ابتسـمتْ وأشـارت إلي بـأن أصمـت، سـيدي الشـيخ مصحـف باليـد وإنـاء المـاء بالكـف، وورع عـلى الوجـه الوقـور وعلامـة التقـى بالغـرة البيضـاء، أمـام بيتـه وعـلى قارعـة الطريـق يمـارس طقوسـه عـلى مـرأى مـن النـاس سلسـلة مـن السـخافات، لقـب العائلـة يـدوي في كل المدينـة، سي عامـر كراماتـه لا تعـد ولا تحـصى، تبـدأ قصـة غوايتـه مـع أم عاجـزة بعاهتهـا التـي أقعدتهـا عـن إعالـة أبنائهـا السـبع بعـد وفـاة زوجهـا، فقـر متقـع، وهـم يراودهـا لا تجـد للقمـة العيـش سـبيلا، في بدايـة السـتينات الـكل غـارق في يـم الفاقـة، لا أخ معـين ولا جـار مسـعف والبـلاد خارجـة للتـو مـن نـير الاسـتدمار، كل يـدور في محنتـه ويلهـث وراء لقمـة العيـش، سـيدي الشـيخ ابـن أبيـه المدلـل، كان اليـد اليمنـى للقـوات الفرنسـية، النّياشـين معلقـة بالصـدر وعامـر خلـف أبيـه تـدرب كل فنـون النفـاق، وورث عنـه العنجهيـة والعظمـة الزائفـة، شـيخ مـن ظهـر شـيخ، صـار شـابا يرتـاد عـلى بيـت السـيدة المقعـدة بحجـة العطـف عـلى أبنائهـا يوفـر لهـا الـزاد لجيـاع صغـار، لا أحـد يـدري أو يتجـرأ حتـى عـلى الشـك، أنـه كان يسـتغل ضعفهـا وحاجتهـا، إيـه مسـكينة لـولا سـيدي الشـيخ لمـات أبناؤهـا مـن الجـوع .

سيدي الشيخ رجل كريم وكراماته كثيرة، من أكل بملعقة بيته شفي ومن مسح على رأسه رزق الولد ومن بصق في فمه رزق الفصاحة.

في دفتره العائلي ورقة بيضاء تخطاها وسجّلها القدر، وخاب ظنه في أن يحافظ على نقاء سجلِّه بلؤم الذئب استدرجها حتى انصاعت له ببلاهة العاجز والمؤمن بخوارقه، كان يمارس عهره باسم المشيخة، بعد شهور أثقلت وأنجبت بنتا لم تجد هذه الأخيرة مخرجا إلا أن تخفي مصيبتها بمنح الطفلة لأحد الأثرياء بمدينة مجاورة، وحلت القضية ضد فاعل مجهول ومولود مجهول، لتعيش البنت في زَمكَانْ غريب بعيدا عن أخوتها.

وبما أن لا أحد يستطيع أن يهرب من قدر محتوم، والزمن لا يخفي بصمات الأصلاب وسمات العرق المتأصلة والبيانات البادية على ناصية الفتاة، عرفت قصتها من إحدى القريبات، سبحان الله أنت تشبهين أبناء اما زينب، تعجبت الفتاة قالت في براءة: من هي اما زينب؟

سكتت العجوز ربما كانت تريد أن تثير القضية عامدة متعمدة لحاجة في نفسها، نهرتها الأم الحاضنة، أسكتي ما هذا الهراء الذي تتفوهين به، علامات الدهشة بادية على الفتاة، لا لا، لا تصمتِ قولي من هي اما زينب هذه الأم يا بنتي راهي غير اتخرف، لكن البنت ساورها بعض الشك تلمست وجهها لا يا اما أنا كحلوشة «سمرة « وخاوتي شوقر لا لا كاينة حاجة، قتلك يابنتي خالتك باهية غير اتخرف، لا لا لا ياما ماهيش اتخرف ساورها الشك، تغير طبع الفتاة، أصبحت مزاجية قلت شهيتها زادت عصبيتها، ولما رأت أمها فاطمة أن البنت أشرفت على الهلاك، لم تجد حلا إلا أن تخبرها بالحقيقة، بادرت البنت من هي أمي وأبي من هو؟ أهو ميت أم حي؟ ما نعرف يابنتي غير ربي ألّي يعرف لقد جاءت بك امرأة أخبرتني بأنك يتيمة الأبوين ويعلم الله أني أحببتك كأبنائي، ظلت البنت تبحث عن أمها، والأم خائفة من أن يكشف

سرها والذي تخفيه حتى عن أبنائها، وأب يخشى أن يكشف زيفه وورعه وطهارته المزعومة أمام أهله، والذين لا يَقِلّونَ نذالة وغرورا منه، وماتزال القضية معلقة في دفتره العائلي ورقة بيضاء تخطاها، وأقرها الزمن، وهو كما هو ماضي في زيفه وكذبه على المعتوهين المؤمنين بكراماته، بدون أدنى حس لمسؤولية الأبوة، بلامبالاة ولامعاناة، بحس متبلد يستعرض قواه الروحية الكاذبة الملوثة .

مرت الأيام، وكلمة لا أقول محمد رسول الله تزمجر بأذني والحزن يكبر معي، من هذا الذي يحدث في بلد ناضل لمدة تزيد عن قرن ونيف إلا ليحافظ على دينه ومقوماته .

هل يعود الابن الضال لأحضان أمه، يتمرغ في حناياها طالبا العفو، معترفا بنضالها وعفافها، وهل سيسلك يوما درب الرشاد ليلعق شهد نورها، ربما، ربما عمي كان يعاني بدأ المرض يغزو جسده القوي، نقله ابنه للمستشفى الجامعي بمدينة باتنة وفي الطريق صادفهم طابور متراص من السيارات طلب قائد السيارة الإذن بالانصراف لأن عمي كان يعاني الألم، لم يسمح لهم الدركي، حتى يحين دورك ويتم تفتيش كل السيارات نزل عمي والألم يعتصره، ياولدي يهديك ربي راني مريض، توسل له دون جدوى، بادر عمي عام ألف وتسع ميا وخمس وخمسين، قاطعه، الحاج تعرف أغنية أم كلثوم {الحب كل حبيتو فيك } وهو يترنم، يتململ، يتمايل، كأنه ثمل، نظر عمي إليه بأسى خسارة أن يكون مثل هذا المعتوه في بلد الجزائر، كان يريد أن يحكي له أن طبيبا فرنسيا، جره أحد الأخوة من أمام حيه ليأخذه لجندي كان يختبئ في بيته كي يداويه، حين أكمل الطبيب مهمته، توجه نحو الرجل قائلا ليس سلاحك الذي جعلني آتي معك إنما هو الواجب الإنساني لقد أقسمت قسم أبو قراط أمام الله لا الاختلاف في العرق ولا اللون ولا الأفكار ولا الدين، يجعلني أتخلف عن واجبي،

دخلت على عمي

كيف حالك ؟ بخير يا بنتي كاهنة

كيف حالك أنت ؟

آه يا عم أنا أقف على مسطبة تتمايل يمينا، شمالا، أفقيا، تتوازى لا أعلم أي اتجاه أسلك؟ يمسك بيدي ابنتي صوّبي رأسك نحو النور تسّاقط عليك الدّرر اليانعات، قد جعل الله بأناملك سَرِيا أروي وأرتوي، النيازك خدامك، الشمس والقمر ربّانك، والقلم مجدافك، اسقي ميدادك خمرة العشاق نورا، يا بنيتي الخفافيش والديناصورات آليون للزوال، فقط العصافير تعمر الأيكة، العسل زادك، والزقوم زادهم، هم للجحيم وأنت للواحة الغناء، ثم أخرجني من الجدية للهزل مازحا يبدو أنه تذكر فجأة عمي محمد، كيف أنت وشيطانك؟

آه يا عم شيطاني يقول لي

à mon commandement gauche

à mon commandement droite

فزع من تحليلي لنفسي، بادر آآآآآشومي

جلجلت بضحكة وانصرفت، ناداني الكاهنة الكاهنة، أشار بأصبعه أسفل جفنه إشارة تحذير، انصرفت وأنا أبتسم، مات عمي سي الحواس، أسلم لبارئه مدثرا بعلم الجزائر، الذي لطالما حياه مرتعشا وقبله بحرارة وهو يقول لي، علم الجزائر رقعة حيكت بالجنة بأيدي الملائكة هدية سماوية، الأبيض نقاء الروح، والأحمر القاني أيقونة حقيقة، دم الشهداء سقى الأشجار الوهاد تملت به التربة وزينت به صخور الأرض، والأخضر، هي رقعة الجزائر التي زرعت بها رفات الشهداء تزاحمت وعشبها فعلا الزهو بين الفجاج والنجمة والهلال كرامة وعزة، يا بنيتي لا تفرطي بها مهما كلفك الأمر، ستصفو السماء وتبتسم النجوم وتزهر الدنيا، الجزائر جبارة لا تنكص، وتصيرين ملكة أيتها الكاهنة،

أبتسم أقبله.

خرجت من البيت قاصدة بيت عمي، في الطريق التقيت بعمي محمد والحزن باد على محياه، جبل شامخا شموخ جبال شيليا.

عظم الله أجرك

ثبت الله أجرك

سي الحواس كان رجلا صنديدا

أومأت له برأسي ومضيت أحسست أنه أراد أن يواصل الحديث لكن لم أكن مستعدة مضيت في صمت .

اقتربت من البيت، جمع غفير حوله هاهم يخرجونه من الدار الفانية للضفة الأخرى، عروس يزف بالزغاريد والفناجين تنتحر وراءه واحدة تلو الأخرى، عادة أهل الأوراس، واحدة يُغمى عليها وأخرى متذمرة من أنهم أخرجوا رجليه في المقدمة تقول لأخرى، إخراجه بهذه الصيغة لا يجوز فأل شؤم ربما لحق أحد من العائلة يخبرون ابنته وهي في حيرة وخوف، تقدمت من إحداهن، قلت الرجل مات خرج برجليه، برأسه، هذا ليس مهما، ما هذه التفاهة، أشاحت وجهها عني باحتقار، أبدو لها أنني لا أفهم في أمور الحياة شيئا، مصيبة الجهل والخرافات التي مازالت تنْحى بنا نحو الهاوية وأخرى ترثيه بكلام مُقفى يشبه الشعر تذكر محاسنه ومناقبه، عاش عظيما ومات عظيما، هو الوالد والفكرة القدوة والثورة .

كلمة التأبين

بوجلال الحواس المدعو بوبكر من مواليد 1912

أيها المشيعون لهذا الرجل العظيم الشأن، البسيط في حياته، إنه ليجدر بنا أن نذكر بعض خصاله ونلقي الضوء على مسيرته النضالية داخل وخارج الوطن، إنه من الأوائل الذين رفضوا بقاء الجزائر تحت وطأة الاستعمار، فلبى نداء الحركة الوطنية في حزب الشعب الجزائري P.P.A. وكان من المناضلين البارزين، ثم انتقل إلى فرنسا وواصل هناك مشواره النضالي ينشر الوعي الثوري في صفوف الشباب المغتربين، في سنة 1954 عاد إلى أرض الوطن وساهم في اندلاع الشعلة الأولى للثورة وعندما أصبح محل بحث من طرف السلطات الفرنسية، غادر أرض الوطن من جديد واستقر بمرسيليا وكثف نشاطه في تجنيد الشباب في صفوف جبهة التحرير الوطني، ثم عين رئيس مجلس الطعن بفيدرالية فرنسا مقاطعة «بوش دي رون « «bouches des rhones «فرض الانضباط في صفوف المناضلين والفدائين، كان بمثابة السيف البتار لكل الخونة، وساهم أيضا في جمع الأموال التي كانت تنفق على الجهاد وأرامل الشهداء، ألقي عليه القبض سنة 1960 من طرف الأمن الفرنسي، سجن إلى غاية الاستقلال أين عاد لأرض الوطن واستمر في تذكية الروح الوطنية، وقد عاش حياة زهد وعفة لايطمع بما ليس له، يعيش من عمل الفلاحة وما تجود به الأرض، أيها الجمع الكريم إن الرجل الذي تشيعون اليوم من الذين عاهدوا وما أخلفوا وعدهم للشهداء الأبرار وكان يولي جل اهتمامه لوضع البلاد ويتحصر على ما آلت إليه، ويحز في نفسه أن يراها تتخبط في الفتن بفعل أبنائها، رحمة الله

عليه وطيب الثرى الذي حواه

« يا أيها الذين آمنوا لاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموات بل أحياء عند ربهم يرزقون «صدق الله العظيم

المجد والخلود للشهداء تحيا الجزائر

بعد خروجه بدأت طقوسا أخرى، في حوش المنزل اللحم يقطع، السلطة تغسل، حالنا حال أهل الأوراس من فرط الكرم الوضيمة تتحول لوليمة،

الحقيبة

هناك فوق الرف حقيبة حديدية تحوي كراسات تعود لسنوات التحاق عمي بمدرسة الزيتونة كان يحتفظ بها في غرفته المعزولة عن الجميع، كانت ابنته تنظف الغرفة دخلت صدفة استهوتني الكرسات بمنظرها العتيق بني باهت على أزرق فاقع اقتربت من الحقيبة والرهبة تهزني وكأنني عثرت على كنز علي بابا، فتحت واحدة كانت لدروس النحو والصرف وواحدة للشعر وأخرى للفقه فتحت الأولى حاولت فك ألغازها، أبيات شعرية لم أتعوّد قراءتها ولا سماعها من قصيدة ألفية ابن مالك من بينها

ورفعوا مبتدأ بالأبتـــدا كذاك رفع خبر بالمبتـدا

والخبر الجزء المتم الفائدة كالله بر والأيادي شاهدة

يبدو أنه تعليم كلاسيكي كان متبعا في ذاك الزمان وجهت نظري شمالا يملأني الفضول وإذا بكراسة هناك معنونة ب:

{هذا ما أرّقني فليغفر لي التاريخ }.

أنا القاضي المحكوم عليه بالمؤبد سجنتني الذكريات المرة بطعم الحنظل الآن وبعد انقضاء سنوات الاشتعال، ها، تعاود الشظايا بحرق أعماقي لتذكّرني أنني رغم قداسة الواجب الذي كرست له كل حياتي وبِعتُ من أجله الدنيا وملذّاتها كنت أظن أني سأهنأ بعد انطفاء النار إلا أن ضميري لا يريد أن

يستكين حين أتذكر أننا أخطأنا في حق الكثيرين ممن حكمنا عليهم بالموت آه، ما أقسى ما مررْنا به !

المرأة التي بصقت على الشهيد عروة الرجل الشجاع الذي كنا نعتمد عليه في كثير من الأمور قتله الفرنسيين وطرحوه أرضا في شوارع مرسيليا على مرأى من الناس، ركلته زهوة برجلها، وأضافت تشتمه، كلب، زوجة بلقاسم الخائن، صباحا فاجأنا جمع غفير من الجالية أمام البيت إن لم تنفذوا فيها حكم الإعدام سنتولى نحن الأمر، هدأت من روعهم أنا وسي انصر، نعدكم باسم الجبهة أنها ستنال جزاءها في أقرب وقت وبالفعل كلفنا أحد الإخوة «طارزان» كما يلقب لشجاعته ودقته في تنفيذه للأوامر المسندة إليه، أنا سأتكفل بالأمر خائنة تركل سيدها لَفْحَل وتبصق عليه سأجعلها تبصق أمعاءها سترون من يومها وهو يقتفي أثرها، في يوم كانت تتنزه أخذ يمشي رويدا رويدا بمحاذاتها حتى غابت عن الأنظار بجانب البحر اقترب منها، وضع المسدس وراء ظهرها اتبعيني ولا تتفوهي بكلمة وإلا فجرت رئتيك مشت وهي تترقب تنظر حولها ما من مجير، واحد ما يقدر افكك مني حتى زوجك هذاك الطحان كلب فرنسا، حين تأكد أن لا أحد يراهما طعنها ورجع أدراجه.

كتب في زاوية الصفحة {هذه تستحق }

رْحِلَية، شهْلة، حْجِيلة، كم كان الحكم قاسيا بحنجر واحد وجرة واحدة بدوار بودرهم عند الفجر ذات خميس وُجدْن مُضمّخات بدمهن بتهمة الخيانة واتصالهن مع القومية يخبرنهن بأماكن المجاهدين وخطتهم لينْجلي لنا أنها كانت وشاية مغرضة من أحدهم لأنه كان يحب واحدة منهن ولم تجاريه الحب، دفعت ثمن رفضه له هي وصديقاتها بالموت ظلما، إنه يقترب منها هي تجلب الدلو من البئر الوردي قومي محلف يطلب منها أن تسقيه ولا تعلم أنها خطة حيكت ضدها، وجيئ بالوردي يصحبه عمر ليشهد دليل

خيانتهن من بعيد، يشير له شوف بيوعة، لابد أ نها تزوده بالعلومات كتب في زاوية الصفحة { فليسامحني الله وليغفر لي التاريخ}

الشريف واحْمنّا ترافقا لإيصال الاشتراكات كيس من المال لسي اخليفة المكلف بحفظه حتى يأتيه الأمر بشراء السلاح، المبلغ كان معتبرا، الشيء الذي جعل الطمع يرقص في عقل الشريف مما جعله يصوب السلاح ضد رفيقه، بكبسة زر سقط احمنا، ومنذ ذلك الحين اختفى أثر المال واحمنا والشريف والذي عُرف في ما بعد الاستقلال أنه انتقل لمدينة تونس وأكمل حياته في رفاه تاركا وراءه لغزا، في زاوية الصفحة { ليغفر له التاريخ}

أنا ضد التصفيات التي تطال القومية والموالين للفرنسيين والمعمرين الذين لم يرحلوا، يصرخ لا تروعوا النساء في أزواجها ولا الأطفال في أبائهم لا تنشروا الرعب، كفى ما عاناه الشعب كفانا دم السلام، السلام اللهم اشهد فأني فقد بلغت {فليشهد التاريخ}

ها هي الذكرى الثامنة من الخامس جويلية جدي فوق فرسه كأنه أمير شيخ لمشايخ تتحاكم عنده لعراش ويفصل بينهم في خصوماتهم حافظ للقرآن ، كريم النفس صارم الطباع، شاشه وسُترته مطرزتان في أبهى حلّة يزفّه عمي بابتسامة محتشمة كأنه طفل مدلل، الفرس بلباس يشعُّ ومضات يُحْكِم ُقبضة اللّجام يوجهها أنّى يشاء، ترقص تحت أنغام الزّرنة رِجْل للأمام وأخرى للوراء تنحني ترفع الرأس تَتْبع سلم الألحان ونحن الأطفال نجري وراء الفرسان نحو ساحة السباق لكن سي الحواس، لا فنطازيا الاحتفال ولا الذّكرى تَمْسح لمْسة الحزن من على سحْنة عينيه ولا طلقات الرصاص المُلْعلعَة في الفجاج استطاعت أن تدغدغ الفرح في جنباته، الآن فقط أتفهم حزنه الدائم ولماذا رفض في بداية الاستقلال حين أوْكلوا له مهمة توزيع شقق الكلون أعطاها كلها لأبناء الشهداء وهو يردد الذين ماتوا هم الذين انتصروا، وبعضها لمن لا يملكون سكنا واستثنى

نفسه بالبقاء في بيته المصنوع من الطين والقش ولم تغويه نفسه العفيفة المطمئنة بالرضا المتعودة على التضحية، وبعد سنوات عرضوا عليه قطعة أرض وجرار وسيارة، رفض بقي هو وفيّ لمبادئه، كأني به لا يريد أن يأخذ شيء من متاع الحياة حتى يكفر عن بعض زلاته ويغفر له التاريخ

زارني ملاك الإلهام، نهضت من نومي أخذت ورقة من فوق منضدة صغيرة، وضعتها خصيصا بجانبي لهذا الغرض، أرتمي بين أحضان الاستعارة والمجاز، أجول بنظري في الغرفة كأنني أبحث عن ملمح زارني فجأة، تتطاير الصور، تجيء سنونوات لتنام بين الأوراق، أنهمك في الكتابة ، أسمع في الغرفة المجاورة تسبيحا، كان أبي يلغي كل الموجودين كمن وحده في صومعته يدندن «آمحمد آ محمد أنا جيتك دبر دبر، كي نتفكر ليلة قبري تبكي عيني واش اصبر»

واصلت الإبحار، وصوته الشجي زادني حزنا انهطلت علي صور جميلة عميقة، تراكيب إبداعية لم تخطها يد من قبل، إنه الحزن، المادة الخام التي نصوغ منها عالمنا الرائع، الإبداع

أني أسمع همسا ، من أين؟ من بهو البيت، هززت رأسي كأنني هبت من فجيعة، أسترق السمع ، لا أسمع إلا همسا، نهضت من فراشي مرعوبة يخيل إلي أني سأقف أمام شبح، اقتربت من الباب وأنا أردد ،» قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد « قرآن كريم « وجدته أبي فزعت علّني أحلم، أم أن أبي قد جُن ، اقتربت منه سمعته يكلم المرآة المنتصبة على الحائط، آه شفت يا وجه البخص وين راك رايح يرموا عليك التراب، وتفارق لحباب شفت شفت يا وجه البخص

أردت أن أبكي ، أن أقهقه، هل أبي جن؟ أم أنه خائف من مواجهة الموت، اقتربت منه فزع مني حين رآني

واش دادة؟

وجـدت آثـار الدمـوع عـلى محيـاه، كان أبي خِـلاف أمـي بـكّاءً بينـما هـي عصيّـة الدّمـع قلـت عهدتـك متجلـدا بالصـبر، أيـام مـات ابـن أختـي طـارق لم يسـيطر عليـك الحـزن ولم يهزمـك المـوت.

قـال مـن منّـا لا يهزمـه المـوت، هـو الوحيـد الـذي هـزم الإنسـان منـذ الأزل أردت أن أدخـل معـه في نقـاش لكننـي عدلـت

بادر: يا بنتي الولد مولود، والخو مفقود .

طأطـأت رأسي أمـام هـذا الحـب الكبـير، عـدت لعالمـي انزويـت في مـكاني، جلسـت القرفصـاء، أنظـر ولا أرى وكل الـذي حـدث، تجسـد أمامـي عـلى شاشـة الحيـاة أصبـح العـالم بـاردا، نخـرت برودتـه عظامـي النحيفـة والأسى يلـف روحـي، التـي غامـرت بالسـباحة في عـوالم مقفـرة، مارسـت الخسـارة في مهـارة كي أحيـا مـن جديـد بعيـدا، عـن المتاهـة.

طيلـة هـذه المـدة حملـت جرحـي فـوق كتفـي ودمـي ينـزف كنـت أنـادي بصمتـي ولم يفهـم أحـد لغتـي ولم يسـمع الأصـماء صـوت جرحـي المتسـامي فـوق كل الجراح المتعفـف عـن اللـوم والسـخط الشـاخص المتـألم ولم يعـرف أحـدا عمقـه ولا أثـاره المتخفـي بالصمـود والتجلـد القائـل بـلا قـول المتفجـر بـلا رغبـات الحـي بداخـلي المتـوفى في ظاهـري.